الفصلُ الثالث

أبعادُ قراءتِه في صَحيح مُسْلمٍ

لكلّ قراءة مثمرةٌ أبعادٌ ترسُم حركتها ، وقراءة الشيخ هنا لها أبعادٌ عديدةٌ أهمها ثلاثةُ أبعادٍ :

- البعدُ الإصلاحِيّ .
- البعد التّربويّ .
- البعد البيانيّ (الجمالِي) .

يُمثل البُعدُ الإصلاحيُّ والتَّربويُّ عمودَ الأمرِ ، ويمثل البُعدُ الثَّالث (البياني) الوِعاءَ الحاضِن البُعديْن الأوّليْن : الإصلاحِيّ والتَّربويّ ، ذلك أن البيان مجلَى المقاصد ومرآتها ، فالبعد الأول والثاني بعدٌ مقاصدي ، والبعدُ الثالث (البياني) بعدٌ أداتي .

ومن ثَمَّ فإنَّ هذِهِ الأبعادَ لا تتجاوَرُ وَلا تَتَوازى ولا تتقاطعُ . هِي أبعادٌ تتمازجُ ، مِنها ما يَكونُ أظهرَ فِي موضع ، دون مَوضعٍ ، هي تتفاوتُ ظُهوراً لاحُضوراً ، مَا مِن موضِعٍ إلا وَأنت مُبصِرٌ فيه الثَّلاثة على دَرجةٍ سَواء فِي الحُضور .

obeikandl.com

ويندرجُ في كلِّ بُعدٍ من هذه الأبعادِ الكليّةِ أبعادٌ أُخرَى جزئية ، وقد حرصتُ على العناية بهذه الأبعادِ الكليّة لِضيقِ المقامِ عَن تفصيلِ القولِ فيما وراءها من أبعادٍ . فلو أَنَّا أردنا استقراء القولِ فِي هذه الأبعاد الثلاثة في هذا السّفر ، واستحصاء عُظم ما جاءَنا به شيخُنا في شَأنها لكان هذا مُقتضِيًا سفرًا كاملاً ، وجُهدًا فتِيًّا أعجزُ اليومَ عن بذلِه .

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (الطلاق:٧)

ولمّا كان البعدُ الإصلاحيّ هو القائم بفريضة الوقتِ ، في عصرنا ومصرنا ، كان البدءُ بالقول فيه ، وكان من بعدِه ما يقومُ مقام التّحلية من بعد التخلية والاستصلاح ، فكان القول في البعد التربويّ ، ولا سيّما تربية طلابِ العلم فهم الذين سيحملون المسؤولية : مسؤوليّة الإصلاحِ والتَّزكية وتثوير مكارم الأخلاق في علاقة الإنسان بربه سُبْحانَه وبِحمدِه وبنفسِه وبالكون وبالحياة وبالإنسان كلّ الإنسان ، فكان حسنًا الاعتناءُ بشأن تربيتهم ، فأردفتُ القولَ فيه من بعد البعد الإصلاحي ، ثم ختمتُ الفصلَ بالبُعد البيانيّ الذي هو الوعاء لهذين البعدين ، ومجلاهما ومشهدهما .

* * *

أولاً : البُعدُ الإصلاحيّ

ممَّا يستوجبُ على العلماء والـدُّعاة وخـبراءِ التَّربيـة وحكمائهـا أن يعملـوا جادّين على إصلاح النّفوسِ من داخلها ، حتى لا يكون فيها أمثال أولئك الذين يضـعون مـن الأنظمـة والقـوانين المكبلـة للعدالـة ، والمؤيّـدة لِلفسـاد وإدارتـه وتعليمه وتَكريم صُنَّاعِهِ وفُرسانِه . .

الأمّةُ اليوم أحوجُ ما تكونُ إلى جهودٍ تربويَّة ودعويَّة جادَّة متجدّدة حكيمـةٍ تُبصرُ الواقعَ بعيْن الصَّقر ، وتضع الدواء الناجع موضعه من الداء ، فيؤتي به الله تعالى البراءة والعافية منه أكثر من حاجتها إلى بحوثٍ أدبية ونقدية وفنيـة هـي إلى الإمتاع الأجرد أقربِ .

* * *

الصَّلاحُ والإصلاحُ هو المقوّم الرَّئيسُ من شخصـية الإنسـان السّـوي عامّـة ، والمسلم خاصّة ، فالسلوكُ الإنسانيّ قائم على هذا أن يكون صَـالحًا مصـلحًا ، ولعلّ أبا البَشر سيدنا « آدَم » إنّما سُمي « آدم » من الفعل (أَدَمَ) أي أصلَح ووفق ، تقول العربُ : أَدَمَ : لأَمَ وأَصْلَح وأَلَّفَ ووفَّق ، وكَذَلِكَ آدَمَ يُؤْدِمُ ، بِالْمَدِّ ، وَكُلُّ مُوافِقٍ إِدامٌ»[1] (آدم) اسمٌ دالٌّ على رسالته ووظيفته في الحياة .

---

(١) في معجم لسان العرب لابن منظور : (باب الميم فصـل الهمـزة) فاشـتقاق اسـم (آدم) من هذا الفعل هو الأوفق .

هو اسْم ممنوع من الصـرف للعلميـة ، ووزن الفعـل كـ(أحمـد) و(يزيـد) و(يَشْـكر) وليس للعلمية والعجمة ، كما يشيع في كتبِ النَّحو .

روى الترمذي في كتاب «النكاح» من جامعِه بسنده عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنَّهُ خَطَبَ امْرَأَةً فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «انْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا» . . . قَالَ أَبُو عِيسَى (الترمذي) هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ . . . وَمَعْنَى قَوْلِهِ «أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا» قَالَ أَحْرَى أَنْ تَدُومَ الْمَوَدَّةُ بَيْنَكُمَا[1].

وكان من دعاء العرب للمتزوجين : «آدم اللهُ بينكما» أيْ جَعَلَ بَيْنَهُمَا الْمَحَبَّةَ وَالاتِّفَاقَ[2]. فـ«آدم» على زنة (أَفْعَل) كـ (أحْمد) : صيغة تفضيل .

وهذا عندى أعلى من القول بأنَّه مأخوذٌ من الأَدَمة الّتي هِي «السّمرة» أو من أديم الأرض أَيْ ترتبها ؛ لأنّه خلق منها ، فالتّرابُ للأرض كمثل الجلد (الأديم) للإنسان .

ما ذهبتُ إليْه من أنّ (آدم) مأخوذٌ من الفعل (أدَم) بمعنى أصلح وألف ووفق هو الأعلى ، فكلمة (آدم) على زنة (أفعل) . هي ناظرةٌ إلى رسالته في الحياة ، إلى مسلكه ، وليس إلى لونه ، فما قيمة اللّون للإنسان حتّى يشتق اسمُه منه ، ولا إلَى ما خلق منه ، فليست قيمة الشَّيءِ في ما خلق منه ، إنّما مردُّ القيمة إلى الفعلِ والسّلوك . من هنا قلت أن كلمة : (آدم) معناها أنّه خلق لِيصلح ما أفسد ، فتلك رسالتُه ، وكأنّ في اصطفاءِ الله تعالى هذا الاسم له ردًّا على ما قالت الملائكة حين أنبأها الله تعالى بأنّه جاعلٌ في الأرضِ خليفة :

---

(١) ورواه في كتاب «النكاح» ابن ماجه ، والنسائي ، والدارقطني والدارمي والبيهقي كلٌّ في سننه ، وأحمد في مسنده وابن حبان في صَحيحه ، الحاكم في المستدرك ، والطبراني في المعجم الكبير ، وصححه الألباني .

(٢) شرح مشكل الآثار . تأليف : أبي جعفر الطحاوي : أحمد بن محمد بن سلامة ابن عبد الملك بن سلمة الأزدي (ت : ٣٢١هـ) تحقيق : شعيب الأرنؤوط . نشر : مؤسسة الرسالة . ط(١) عام ١٤١٥ هـ . ٢٨٨/١١

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٣٠)

فسيُّدنا (آدم) عليْه الصّلاةُ والسّلام وبنوه رسالتهم في هذه الحياة عمودها الإصلاح العام السابغ ، ولن يكون المرءُ مصالحًا إلا إذا ما كان صَالِحًا في نفسِه ، من هنا كان هذا البُعد هو الأولَى بالابتداءِ به .

وقد كانت كلمة سيّدنا «شُعيب» عَلَيْهِ الصّلاةُ والسلام لقومه : ﴿ . . . يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (هود:٨٨) هي شعار كلّ نبيّ .

الإصلاحُ رسالة الرُّسل ، ورسالةُ ورثتهم مِن العلماءِ ، وإذا ما كانَ كلُّ رسُولٍ على كمال صلاحِهِ في نفسِهِ وجميعِ أمرِه ، فالشَّأنُ أن يكونَ كذلك ورثتُهم مِن العلماءِ علَى تمامِ صلاحِهم فِي أنفسِهم وجميعِ أحوالِهم ، لِيكونَ إصلاحُهم بلسانِ حالهم أسبقَ وأفعلَ من إصلاحِهم بلسان مقالِهم ، فيُغنِيهم فعلُ لسانِ حالِهم عن الاجتهادِ والمبالغةِ بلسانِ مقالِهم .

ومن ثَمَّ كان الأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكر بلسان الحال والسلوك فريضة عين على كل مُسْلِمٍ ، وبلسان الحال والمقال معًا على كلّ عالمٍ . والعالمُ إذا وجدَ نفسَه مُضطرًّا إلَى أن يُجاهدَ ويبالِغَ في القولِ ليحقِّقَ الإصلاحَ في أهلِه وقومِه ، فعليه أولاً أنْ ينظرَ في نفسِه ، لعلّ العائقَ عن تحقُّقِ الإصلاحِ إنّما هُو فيه هو لا في أهلِهِ وقومِه ، لعله هُو عَيِّيَ لسانِ الحالِ وإن كان طليقَ لسانِ المقالِ .

إنَّ الضَّرَرَ مِن عِيِّ لسانِ المقالِ مَع طلاقةِ لِسانِ الحالِ أيسرُ مِن الضّررِ مِن عِيّ لسانِ الحالِ مع طلاقةِ لسانِ المقال . بل إنّ عِيّ لسانِ الحالِ لَيَئِدُ أثرَ لسانِ

المقالِ مَهما بلغَ طلاقة وبلاغةً ، فَحقٌّ علَى كلِّ عالِم أن يُفتشَ فِي حالِهِ لِيعلمَ مِقدارَ طلاقةِ لسانِ حالِهِ وفَصاحتِه واقتدارِه على أن يَنفذَ فِي الصّدورِ .

وكم من رجل اهتديْنا إلى الحق والخير بلسان حالِه أكثر من لسان مقالِه ، وهم اليوم في الناس قلّ ، وكمْ من رجلٍ منتسبٍ إلى أهلِ العلمِ يفسِدُ بلسان حالِه ما يبنيه صباحَ مساء بلسان مقالِه .

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ (النحل:٩٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾

(محمد:٣٣)

من هنا تظهر أهمية الدَّعوة إلى تَحقِيقِ هذه الفضيلة : فضِيلة الصّلاحِ والإصلاحِ .

هذا البعدُ الإصلاحيّ هو الأعظمُ والأكثر حضوراً في كتاب الشّيخِ ، وهو المَأمّ الأعظمُ منه ، فالتغييرِ إلى الأسمَى والأمجد رسالته ، ومَن ينظرُ في ما غلب على اختيارات الشّيخ من أحاديث صَحيحِ مسلم يجدُ أنَّها الأحاديثُ الّتي تبيّنُ لنا المُفسداتِ هذه الحياةِ ، ولا سيّما الكبائرُ ، ولذا كثرَت هذه الأحاديثُ في اختيارات الشّيخِ ، فهو اختيارٌ منهجي تَربَويّ في المقامِ الأول والأجلّ ، ولم يكن اختياراً مَبنيًّا على ما كثرتْ فيه الخَصائصُ التّركيبيّة والأنماطُ التّصويريّة والفنون التّحبيريّة الدّقيقةُ اللّطيفة الطّريفةُ عَلى نحوِ ما يفهمُ ذلك طلابُ علم البلاغةِ العربيّ وينشغلون بِه ، فهُو يستهلّ كتابَه بالأحاديث الّتي صوّرت لنا الكبائِر المُتفشيّة فينا في زماننا هذا أكثر من تفشيها في زمن المبعثِ ، وكأنَّ النبيّ صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ قالها لنا نحنُ في المقام الأوّل .

فالحديث الأول من اختيارات الشيخ مثلاً يحدثنا عن الزِّنا والسّرقة وشُرب الخمرِ وعن الغلول والانتهاب ، وهي كبائرُ يندرُ وقوعها في القُرون الأوَل .

وقد بسط الشّيخُ القول في هذه الأحاديث بسطًا لم يبسطُه في غيرها ، لأنّه رأى ببصرِهِ وبصيرتِهِ مدَى استشراءِ هذه الموبقاتِ في عصرِنا ، وكيف أنَّ سَحرة إبليس يبالغون في نشر هذه الكبائرِ في الأُمَّة ، ويُبالِغون فِي تصوير أنَّها مِن ضَرورات الحياة ، ومن معالم التّحرّر .

وكنت قد أدركتُ أن الكتاب قائمٌ على هذا البُعد الإصلاحيّ من الصفحات الأولى من الكتاب ، فلما بلغت الصَّفحة الخامسة والخمسين بعد المئة سمعتُ الشيخ يُؤذّنُ :

« ليس عندِي فيما أكتب أهمّ مِن أنْ أبين كيفَ كانَ صلاح الجماعةِ هو الهدفُ الرشيد من كلامه صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وكيف كان صَلاح ديننا هو الهدفُ من كلّ كلامِه عليْهِ الصّلاةُ والسّلامُ . . . إلخ »

فالكتابُ ليس في بيان بلاغة النّبوة على نحو ما يعهده طلابُ العلم فيما يكتبه لهم أساتذتهم « الأكاديميّون » في علم البلاغة العربيّ .

لم يكنْ مِن وكدِ الشّيخ أن يخبرك عن أسلوبِ التقديم أو الفصل أو الوصل أو الاستعارة . . . في بيان رسُول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ ، على النَّحو الذي يكون في أسفارِ البلاغيين وإن كان هذا في نفسِه طَلبةً جليلةً ، بل وكدُ الشيخ وهمّه أن يُبين لك عن منهج بيان النُّبوّة في إصلاح الحياة من خلالِ بصرِه بمنهجه في تصويرِ معاني الهدَى . فالنّظر البلاغيّ في الأساليب وسيلة إلى غاية أجلّ ، والاكتفاء بالنّظرِ في الأساليب وتدقيقات العلماءِ ومراجعاتهم ومناقشاتهم،وإنْ كان هُو الأهمَّ في مرحلةٍ من مراحلِ طلبِ العلم، فإنَّ الإخلادَ إليه والمكثَ فيه إلى أن تنقَضِي حياة طالبِ العلمِ من العقوقِ بالعلم وطلابِه وبأنفسنا الفاعلةِ أيضًا .

غيرُ قليلٍ من طلابِ العلم وأهلِه ينكفِؤون على ما تخصصوا فيه من علومِ العربيةِ ، فلا يكادُ الرجلُ منهم يَعرفُ إلا ما تخصَّص فيه مِن نَحو أو نقدٍ

أو بلاغة . . . ولا يستثمرُ هـذا العلم فـي إصـلاح الأمّـة . فتنقضِـي حيـاتـه ، ولا يعرفُ له إلا مجاهدته في تتبع مذاهب النّحاة في عويص النحو ومتهالـك المذاهب الأدبية والنقدية ، وسفساف أخبار الشّعراء . . . وكـأنّ هـذا هـو الـذي يدخل به على ربّه سُبْحانَه وبِحمدِه .

ما هذه العلوم إلا أدواتٍ لا غايات . فمن استغنى بجمع الأدوات فقد ضلّ ، وغبن نفسَه وقومه .

الإصلاح عند الشيخ هو الهَمُّ الأكـبرُ ، ومخـرج هـذا الهـمّ يقينـه بأنّـه لـيس الفريضة اللازمة اللازبة أن تكون أنت صَالحًا وكفى ، كلا ، بـل أن تكـون أنـت صَالحًا مصلحًا . وبيان النُّبوّة يتوافد فيه كثيرٌ من الهدَى المنادي بأن يكون المرءِ لنفسِه وقومه ودينه ووطنه وللإنسانية جمعاء أمّا ما يحرصُ عليْه أعداء الإنسان كلّ الإنسان من رفع شعارهم (خليك في حالك) فإنّهم يريدون أن يكـون هـذا هو عماد شَخصية كلّ مسلم ليتمكنوا من المسلمين ، وهم يرفعون هذا الشعار ولا يأخذون به ، بل هم يدسون أُنوفهم وأقلامهم وسيُوفهم في كل صَغيرٍ وكبيرٍ من شأن المسلمين .

ومن منطلقاتِ هذا البُعد الإصلاحيّ عند الشيخ القيام بما فرضَ على العـالمِ أولا وعلى كلّ مسلم ثانيًا من أن يجاهد كلّ فسادٍ في الأرضِ بكل ما أوتي من نعمِ الله تعالى . نفسِه ومالِه وعلمه . . . .

وإذا ما كان أبو داود قد روى في كتاب (الجهاد) من سننه بسنده عَنْ أَنَـسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِـكُمْ وَأَلْسِـنَتِكُمْ » . فـإنّ ذكر « المشركين » غير حاصر الجهاد فيهم ، فهم رأس من يجبُ جهاده بالمال والنّفس والألسنة وكلّ ما يملك العبـد مـن نعـمِ الله تعـالى عليْـه ، وجهـاد رِدْءِ المشركين وخدنتِهم وحفدتهم من أبناءِ جلدتنا هـو مـن جهـاد المشـركين لأنّ الغايةَ عند كلٍّ واحدة .

نحن إنّما نجاهدُ مناهجَ وبرامجَ ومخططاتٍ ومآرب ، لا نجاهد أشخاصًا بأعينهم . ما هكذا تُورَد ياسعدُ الإبلُ .

لو أنّ علمانيًّا قال كلمة الحق لناصرناها ، كأنّها خرجتْ من فم عالم ربّانيّ ، ولو خرجت كلمةُ الباطلِ من فم شيخ الإسلامِ وإمام المسلمين ـ إن كان للإسلام والمسلمين اليوم شيخٌ وإمامٌ !!!ـ لعارضناها وخاصمناها حتى نزهقَها بالحقّ ، وحتّى يؤوب إلى كلمة سواء ، فنُنْقذه من قبضة الشّيطان ، فذلك حقه علينا : (لا يظلمُه ولا يُسلمُه) ...

البُعدُ الإصلاحيّ هو المقدَّم في حاضرنا لأنّ السِّياقَ القائمَ هو سياقُ فسادٍ وإفسادٍ وصناعَته وإدارته وحياطته ، وهذا يستوجِبُ أن يكونَ الأهمّ الأكبر لكلِّ ما نمارسُه مِن العلمِ والعملِ هُو إصلاحُ هذا الفسادِ وكشفِه وبيان مخاطره ، وكشفِ أستارِ سدنتِه فِي المجتمعِ ، والمجاهرة بكشفِ ما يدبّرون للأمَّة والإنسانيّةِ في عزمٍ فتيّ ، وإصرارٍ أبيّ لا يُجامل ، ولا يهادِن ولا يداري البتة .

والشيخُ يؤدِّن فينا كاشفًا عن وجه عنايةِ البيانِ النبويّ ببيان المفسداتِ لهذه الحياة ، يقُول « نجدُ أحاديثَ الكبائر تَتَغلْغلُ في صَميم حياتنا ، وتستمدُ حجمَها وكبرَها وأكبرها مِن خلالِ ما نعانيه نحنُ منها .

ولا أحبُّ أنْ أحدّثَ الناسَ فِي دينِ اللهِ بِحديثٍ أفضلَ من هذه الأحاديث الّتي أرَى فِيها دين اللهِ يَحرسُ حياتنا من الفساد والإفساد ، ويَحدو عِبادَ اللهِ المُخلصين إلى مزيدٍ من الإحسانِ ، فبمِقدارِ ما يقدم العبدُ الصّالح لحياتنا من الصّلاح والإصلاح تكون مرتبته عند الله . . . » [1]

وهو ينادي على من يظنّ أنّ كلامه في شأن الأمة وإصلاح ما فسد منها ، والدَّفع عنها ليس من بابِ شرح الأحاديث ـ من يظن أنَّ « هذا الكلامَ ليس

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١٥٨/١ .

لازمًا لشرحِ الحديثِ فاترك كتابي ؛ لأنّ الأمر بيْني وبيْنك مختلفٌ جدًّا ومتّسعٌ جدًّا . وقد قلتُ في هذا الكتاب وفِي غيرِه إنّني لا أتكلّم فِي آيةٍ ، ولا فِي حديثٍ إلا عندما أشعرُ أنّها نزلتْ الآنَ ، ونزلتْ للأحداث التي أعيشها »[1].

هذا الاستحضارُ لبيانِ النُّبوّة في أحداثِ الواقع هو من قبيل النَّصيحة لبيان النُّبوّة أولاً ، وللأمّة ثانيا ، لأنَّ بيانَ النّبوّة لم يكن لزمان المبعث وحده ، بل هو لكلّ عصرٍ ومِصرٍ وجنسٍ ، ولكلّ حادثةٍ تحدثُ في هذه الحياةِ إلى يوم القيامة ، من أنّه صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ بُعث رحمة للعالمين وللنَّاسِ كافة ، فوجبَ أن يكونَ هذا البيانُ لهذا الزَّمان ولكلّ زمان ، فأنت تقرأُه وكأنَّك أنت المخاطب به أولاً ، وكأنَّ رسول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ قائمٌ بيننا يهدينا إلى المخرج ممّا نحن فيه ، ولكن أكثرَ النّاس لايعقلون أو لايريدون أن يعقلوا هذه الحقيقة .

فقراءة بيان النّبوّة في سياق الواقع الذي يَعيشه القارئُ هُو من النَّصيحة لهذا البيان ؛ لأنَّه ضربٌ من إحيائِه وتفعيلِه ، ومَن أحيا سُنة من سنتَه صَلّى الله عليْهِ وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّم تسليمًا كَثيرا كان له فضلُ من أخذَ بها إلى يوم القيامةِ . فكيف بالّذي يجعلُ سنَّته هي السُّلطان على هذه الحياة ، وهي المخرج والمنجا ؟

وهو أيْضًا من النَّصيحةِ للأمّة ، لأنّ دلالتَها على الخيرِ القائمِ بيْن يديْها يحميها أولاً من استجداءِ ما يُخرجُها مِن محنتِها ، وما يرسُم لها طريقَها إلى العِزّةِ ، وما يقيم على جنبات الطَّريق معالمَ الهُدى .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الحجرات:١).

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١٦١/١ .

روَى الترمذيّ في كتاب (صِفة القِيامةِ) من جامعهِ بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ : « يَا غُلَامُ إِنِّى أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ ».

قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ[1].

وكلُّ ذلك البدءُ به فريضةٌ لازمةٌ لازبةٌ على كلّ مُسلمٍ إزاءَ أمته فكيف بعلمائها؟!! ومَن حسِبَ أنَّ العقلَ البلاغيّ مهمومٌ بالكلمة الجمالِ الأجردِ فقد ضلَّ فهمًا .

العقلُ البلاغيُّ لايُعنى بجَمالِ الكلمةِ إلا إذا كان هذا الجمالُ وليدَ جلالِ المَقصد . فالجمالُ الحقُّ ما كان وليدَ الجلالِ . وليس ثَم جمالٌ إلا وهو مزيجٌ من النّفعِ والمُتعة ، والمُتعة نفسُها عند الأسوياءِ نفعٌ مثلما النَّفع في نفسِه عند العقلاءِ مُتعة فالعاقلُ السّويّ إنّما يستمتعُ بما ينفعُه إن عاجلا أو آجلاً ، ويتألم ممّا لا ينفعُه إن عاجلاً أو آجلاً ، فليس ثَم متعةٌ خلاءٌ من منفعةٍ إلا متعة الشَّيطان .

كلُّ مُتعةٍ حقَّةٍ تنشرحُ بها النّفسُ فَإذَا ما انشرحَتْ النَّفسُ السَّوية للحياةِ عمَّرتْها بنصرِ الحقِّ وصناعةِ الخيروإشاعتِه فيها

وليس نفعٌ حقيقيّ خلاءً من المُتعة الحقّةِ إلا عند من فقد الإحساس

---

(١) ورواه أحمد في مسنده ، والطبراني في الأوسط والكبير ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان صحّحه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح ، رقم (٥٣٠٢) وفي صَحيح وضعيف سنن الترمذي . رقم (٢٥١٦)

الصَّحيح بالجمال[1] فكانتْ قراءة البيان النبوي في واقعِ الأمة ضربًا من ضُروب الإصلاحِ المنهجيِّ في تلقّي البيانِ .

وإصلاحُ منهج التلقّي والقراءة والفهم مقدمٌ على كل إصلاح لأنّه يبنى عليه كل صُنُوف الإصلاح وضروبِه مهما تنوعت مناطاته وتعددت .

واستجداءُ مناهجِ الإصلاحِ قبْل النّظرِ فيما بيْن أيدِينا مِن مناهجِ الإصلاحِ فِي الكتابِ والسُّنّة إنّما هُو مَعرّة أعظمُ مِن معرَّة استجداءِ المَطعَمِ والكساءِ والدّواءِ .

* * *

مَن أهمِّ ما عُنِيَ الشَّيخُ بإصلاحِه منهجُ القراءةِ والتَّلقِّي والفهْمِ ، فإصلاحُه هُو الخطوة الرَّئيسةً إلى إصلاحِ كثيرٍ مِن موقفِ الإنسانِ مِن الكونِ والحياةِ والنَّاسِ جميعًا ، لأنّ الضَّلالَ في الفهْم أو التَّقصِير فيه يترتبُ عليْه مِن المَضارِّ ما لا يُطاقُ ، والتَّميُّزُ فِي التَّلقِّي والفهْم يفتحُ آفاقًا رَحبة للتَّسامح والإعذار والأخذِ بيدِ الآخرين إلى الجادَّة .

إنّ سُوءَ الفَهْم مِن أشدِّ الأشياءِ ضَررًا ، وإذا ما كانَ علمُ البلاغة العربيّ إفهامًا يُحقّقُ لأهلِه الأوفياءِ بحقِّه فضيلةَ الاحترازِ عَن الخطأ في مطابقةِ بيانِهم مقتضى الحال معنى وصُورةً ودَلالةً ، فإنّ علمَ البلاغةِ العربيَّ (فهمًا) مِن أُصولِ رسالتِه تحقيقُ الاحترازِ مِن سُوءِ الفَهم لِمنْ أحسنَ النَّظرَ فيه بقلبٍ سليم ، وعقلٍ قويمٍ . ولعلّ مقالة سيّدنا عليّ بن أبي طالبٍ رضِيَ الله عنه : إذا أتاكم الحديثُ عن رسُولِ الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ فظنوا بِه الذي هُو أهدَى والذي هوأهنا والذي هوأتقَى . لعل هذه المقالة تؤكد وجوب الاحتراز عن

---

(١) بسطتُ القول في هذا لأني رأيت كثيرًا من طلابِ العلم يحسبون أن المتعة الحقة يُمكن أن تكون من غير نفعٍ ، وأن النَّفع قد يخلو من المتعة الحقة ، وهذا حُسبان ضالٌّ أثمره نظرٌ عابر في حقائقِ الأشياءِ ، ومن سافرتْ بصيرتُه في أغوارِ الأشياء علم الذي قلتُ .

نقيصة سوء الفهمِ لما جاءنا من البيانِ النّبوي . وعلم البلاغةِ العربيّ هو الذي يحقق هذا الاحتِرازَ عَن نقِيصةِ سُوء الفهم .

* * *

من ذلك الإصلاح في التلقّي والفهم ما نراه في تصحيحِه ما تداولته الفهوم مِن حرفية في فهمِ بيانِ النُّبوَّةِ ممَّا جعلَ الرُّؤيةَ ضيّقًا أفقُها ما تراه في بيانه معنى قول سيّدنا رسُول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ : (وأن تُزانِي حليلةَ جارِك) فيلفتنا إلى أنَّ «الحليلة» تطلقُ غالبًا على الزَّوجة ، ويكونُ أصلُها من حلّ يحِلّ بكسر «الحاء» كضرب يضرِبُ ، فتكون من «الحلالِ» الذي هو ضِدُّ «الحرام» ، ويلفتنا إلى أنّك إذا جعلتها من حلّ يحلّ بضم «الحاء» من باب قعد يقعُد كانت من «الحلول» الّذي هو ضدُّ المقام والمُكث ، فيدخل في هذا الفهم كلّ مَن كانتْ بحوزةِ جارك من أُمٍّ وأختٍ وبنْتٍ وخادمةٍ وضيفةٍ . . . . فتتسعُ الرُّؤية ويتسعُ الحفاظ ويشتدُّ النَّهيُ .

وهذا التَّصحيحُ للفهمِ هُو الأليقُ بحالِ الأمّةِ ، فقد بات استحلالُ العبثِ بمن هِي في الجوار من الأمهاتِ والأخواتِ والزَّوجاتِ والبناتِ والخادماتِ . . . أمراً كأنَّه المعهودُ المعروفُ الّذِي لا يُنكرُ عند وجهاءِ القومِ مِن «أبناءِ الذوات» ، فأوّلُ مَن يتجرّأ الغلامُ فيهم عليه ليَعبثَ في أخلاقِه هُو جارتُه ، وهذا أمرٌ يسعَى سحرةُ إبليس إلى تقريرِه في نفوس الشبيبةِ ، وإلَى تقريرِ أنَّ ذلك قدْ مارسَه الكبارُ والأجدادُ والوجهاءُ والأسوةُ والرُّموزُ الوطنيون ، فإن فعلت أيها الغلامُ فأنت المتّبع لا المبتدع ، فلا ملامة ولا عتبى . كذلك يفعلون مِن خلالِ ما ينفثونه من برامج ، وأفلامٍ ومسرحياتٍ وروايات وأغانٍ يعدها ويخرجها رضيعُ الشّيطانِ وينفق عليها في عَصْرِنا ومِصْرِنا من بيت مال المسلمين .

الشَّيخُ كما ترَى يذهبُ إلى أنّ منطقَ الواقعِ ومَنطق الرّسالة النَّبويّة يحملُ إلى أن يكونَ التأويل لكلمة (حَليلة جارِك) جاريًا على الاتساع الدَّلالي

المنضبط بالشَّرع وبالعقلِ وبالواقعِ ، وفي هذا النّهج من إصلاح الفَهم نهجٌ من إصلاح السُّلوك المُجتمعيّ الذي يَسعَى سحرةُ إبليس إلى إفسادِه .

عمَد إلى إصلاح الفهم فاتسعت الرُّؤية وترتَّب عليها اتساعُ مناطِ النّهي ، وكان هذا أليَقَ بحال الهَدْي النّبوي فهو هدْيُ سابغُ لايَحدّه زمانٌ أوْ مكانٌ أو مجتمع . ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

وقد يقُول قائلٌ : إن تأويل الحليلة بالزّوج مبني على مذهب النّهي عن أبشعِ صور المَنهي عنه إبلاغًا في التَّنفيرِ مِن الأدنى ، فيكونُ من بابِ قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ (آل عمران:١٣٠) وقوله تعالى : ﴿ . . . وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (النور:٣٣)

قد يقال . بيْد أنَّ المذهبَ الأوَّل أصرحُ وأقربُ وما لا يَحتاجُ إلى تأويل مقدمٌ على ما يحتاجُه ، ولا سيما في مثل هذا البابِ الَّذِي بِهِ صِيانةُ الأعراضِ الَّتِي هِي عَديلُ الأرواحِ ، ولا سيّما عِندَ العَربِ خاصَّة والمُسلِمين عامّةً .

* * *

ومن هذا ما لفتَ إليه من سوء فهم كلمة (رعيّة) في قول رسُول الله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلاَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ».

فهم بعضٌ من استعمال كلمة «الرّعية» في الخطابِ السّياسيّ معنًى رأى أنَّ كلمة (مواطن) أدلّ على الأولى منها ، فكتب كتابا جعل عنوانه (مواطنون لا راعيا) ولا ريب أنّ المؤلف لم يَردّ كلمة (الرّعية) في بيان النُّبوّة ، ، فالمؤلف رحمه الله تعالى أجلُّ مقامًا من ذلك ، هو نظرَ إلى المعنى الاجتماعيّ والسّياسيّ المعاصر لكلمة (رعيّة) الحامل شيئًا من الإهانة في الخطاب

السّياسيّ والاجتماعيّ ، ولكن شيخنا أصلح لنا فهم هذه الكلمة ، فقرأها في سياقها النّبويّ ، فهدَى إلى أنّ كلمة الرَّاعِي والرّعية من الكلمات الحاضرة في بيان النُّبوّة ولها فيه معنى كريمٌ وزاكٍ ونبيلٌ وطهور ، غيرأنَّ تداولَها في ألسنةِ السَّاسةِ لوثّها في أذهان النَّاسِ . والصّواب أن يبقى المعنى النّبويّ للكلمة هو الحاضرَ المتداولَ ، لأنَّ كلمة الرّاعي تحملُ معنى الخادِمِ والحامِي ، ولا تعنِي معنى المالِك والمتسلطِ ، فهي قرينُ كلمة (قوَّامون) في قول الله سُبْحانَه وبِحمدِه ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴾(النساء:٣٤)

«القوَّامون» هم من قاموا على رعاية المرأة وحمايتها ، وليس تسلطًا وتجبرًا ، فذلك لا يتواءم مع مفهوم كلمة «الرِّجال» ولا مع لِحاق الجملة : ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ ﴾ ولا مع سياق سورتها (النّساء) : هو سياقٌ قائمٌ بتقرير منهاجِ بناءِ الأسرةِ المسلمة على دعامتي العدلِ والرّحمة .

وما كان كذلك لا يكونُ فيه الرّجل متسلطًا ، وفي بيانِ النُّبوّة من الأحاديث مَا يقرِّر وجوب الإحسان إلى المرأة وحرمة التسلطِ عليها . كذلك كلمةُ (الرّاعي) «لأنّ كلمة الرّاعِي هُو القائمُ علَى خدمةِ الرَّعيّةِ ، وهُو المَسؤولُ الأوَّلُ عَن أشياءَ لا تتيسّرُ إلا لَهُ ، ولا يقدِرُ عليْها إلا هُو . . .» [1]

ويلفت أيضًا إلى ما حلّ بكلمة (أهلِ الذمة) من سوء فهم يستوجب إصلاحه ، فلفت إلى المعنى النَّبيل الذي تَحمله الكلمةُ في سياق حضُورِها في بيان النُّبوّة ثُمَّ في بيان الفقهاء .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/١٢٠ ، ٤٠٧ .

ليس صحيحًا أنّ هذه الكلمةَ تنفِي حقَّ المواطنة ، وتجعلُ أصحابها دون طبقةِ الأكثريةِ في الحقوقِ ، فمثل هذا حين ينشرُه العلمانيون والليبراليون في آذان النَّاس وغير قليلٍ من النَّاسِ عقلهم في آذانهم ، كما قال أحمد شوقِي إنما ، يرادُ بِه التّشويهُ والتشويشُ على أصُولٍ فقهيّةٍ جليلة جدًّا ؛ لأنَّ هذه الكلمةَ لا تنقصُ مِن حقُوقِ المواطنة مثقالَ حبةٍ من خردلٍ ؛ لأنَّ هذه الحقُوق مضمونةٌ بِقوله عَلَيْهِ السَّلامُ « لَهُم ما لنا وعليهم ما علينا »

وهي كلمةٌ تكادُ تنصُّ نصًّا مباشرًا على ما نسميه حقّ المواطنة . . .

ثُمّ يُضافُ إلى هذه الجماعةِ التي تعيشُ بيْن المسلمين وليست منهم عهدٌ هو زيادةٌ لهم حتى لا يستفزهم جاهلٌ أو أحمقٌ أو متعصّبٌ ، هذا العهدُ زيد في احترامه ومهابته وتقديرِهِ ، فسمّي ذمة الله ورسُولِه ، فمن خاشنهم أو قاربهم بسوءٍ فقد اعتدَى على عهدِ اللهِ ورسُولِه ، واعتدَى على ذمة اللهِ ورسوله ....»[1]

ولوأنّ الناس نظروا في ما شرعه الله تعالى من إباحةِ نكاح نساء أهلِ الذمة لكفوا اللغط في مفهومِ أهل الذمة ، وإذا ما كان الله تعالى يَقُول :

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (المائدة:٥)

فهذا هادٍ إلى أنّ أهل الكتاب (أهل الذّمة) فيما يتعلقُ بالحقوق الاجتماعية غير منقوصين . فقد جعل طعامهم ونساءهم حلالاً . وهو سُبحانهُ وَتَعَالَى ما أحل لنا إلا الطيبات .

وحقوقُ الزَّوجة الكتابية في شَريعة الإسلامِ عديل حقوق الزوجةِ المسلمة إلا ما يتعلق بالميراث ، فهما لايتوارثان .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/١٢٠ .

روى الشيخان في كتاب الفرائض من صَحيحيهما بسنديهما عَنْ أُسَامَةَ ابْنِ زَيْدٍ ـ رضى الله عنهما ـ أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ «لاَ يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ ، وَلاَ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ»(١).

والقرآن حين وصى بالإحسان إلى الجار الجُنب والصاحب بالجنب ، لم يخص هذا بالجار المسلم . ﴿ **وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا** ﴾ (النساء:٣٦).

---

(١) الكافر في الحديث يشمل كل من كان غير مسلمٍ ، وإن كان من أهل الكتاب .
وهذا الحديث عام لا يدخله التخصيص ، وهو قطعيّ الدلالة ، فهو من النصُوصِ المحكمة .
وفي بناء صورة المعنى في الحديث فوائد .
انظركيف أنه سوّى بينهما في عدم التوارث ، ولم يجعل المسلم وهو الأعلي دينا وارثًا للكافر ، بل قدم نفي وراثته الكافر في البيان ، ممّا لو سكت عند قوله(لا يرثُ المسلمُ الكافر) لكفَى ؛ لأنه سيفهم اقتضاء أنّ الكافر الأدني لا يرث المسلم الأعلى .
ولوأنَّه قدم قوله (لا يرثُ الكافرُ المسْلِمَ) لتوهم أنّ المانع هو دنو منزلة دينه ، وعدم اعترافِ الوارثِ بدين الموروث على غرار النكاح ، ينكح المسلمُ الكتابية ، ولا ينكح الكتابي المسلمة ، لعدم اعترافه بدينها ، ولكنه قدم (لايرثُ المسلمُ الكافرَ) ليؤكد عدم إرث الكافرِ المسْلِمَ .
وثم بعضٌ من أهل العلم على القول بوراثة المسلمِ الكافر ، وقد نقده الأعيان من أهل العلم . وقرروا علو القول بعدم التوارث .
وهنا قد تثور ثائرة الأعلاج من العلمانيين والليبراليين وسحرة إبليس بأن هذا تفرقة بين الناسِ تناقض الدستور الحاكم على كلّ شيءٍ .
ولكنهم لايستطيعون أن ينبسوا ببنت شفة إزاء تحريم الكنيسة الزواج بين نصرايين أحدهما أرثوزكسي والآخر كاثولوكي أو بروستانتي ، وهما على دين الصليب ، فلم كان هذا شأنًا كنسيًّا سياديا ، لا يتدخلون فيه ، وكان عدم زواج النّصراني مسلمة ، وعدم توارث المسلم وغير المسلم كلاً مباحًا لكل راتع وناعق . ؟!!!!!

والرسول صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ حين وصّى بالنساء ، وبالجار لم يجعل هذا خاصًّا بالمُسلم .

إنَّ سوءَ الفهمِ آتٍ من قِبل القراءةِ التجزئيّة التي تفصِم العبارة عن سياقها الخاص والعام ، فتسقط عليها من العقل ما ليس فيها ، وهو بابٌ من تحريف القول عن مواضِعه .

ومن هذا البابِ الإصلاحي للتلقّي والفهم ما جاء بِه في شرح قول النبيّ صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ : « ليسَ الغِنَى عَنْ كثرةِ العرَض . ولكنّ الغنى غِنى النفسِ».

خشي الشَّيخُ مِن سُوء فهم الجملة الأولى في هذا الحديث ، والذهابُ به إلى أنّ الهدي النبوي يقدح في كثرةِ العرضِ أو يزهد فيه ، فمثلُ هذا إذا جرَى في النُّفوسِ كانت آثاره في تعمير الحياةِ بطاعةِ الله تعالى جدَّ خطيرة ومبيرة ، لأنّ هذا سيدعُ المالَ في أيدي السّفلة السفهة ، فينفقونه فيما يحاربون بِه الله تعالى ، وما يفسدُون به الحياة ، وما نحن فيه من بلاءٍ في عصرنا ومصرنا وطننا العربي والإسلاميّ من أسبابه أنّ وفيرَ المال في أيدي أسافلنا وسفهائنا في غالبِ الأمر ، وأنّ الصالحين ليس في أيديهم إلا ما يكفيهم ، والله تعالى يقُول :

﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ (النساء:٥)

ومن سبل عدم إتيان الأموال السُّفهاء أن لا تخلى لهم الطرق إلى استلابِه واكتنازه واستهلاكه فيما يفسدُ الحياة ، بل تجب مزاحمتهم ومطاردتهم من تلك السبل ، فلا يبقَى في أيديهم إلا ما يكفيهم حتى يهودوا إلى رشدهم .

ومن فهم أنَّ البيان النَّبويّ يزهد في كثرةِ العرضِ فقد اقتطع الحديث من سياقِه العام ، فقد جاء في مسند أحمد بسنده عن عَمْرَو بْن الْعَاصِ أن رسول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ قال له في سياق ممتد :

« يَا عَمْرُو نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ ».

هذا الهدي النبوي هو القاعدة العظيمة التي تبنى عليها علاقة المسلم بالمال ومتاع الحياة الدنيا . وبه يفهم المعنى الصحيح للزّهد المشروع . وقول رسول الله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ : « ليس الغنى عن كثرةِ العرضِ » « ليس فيه لفظةٌ ولا إشارةٌ تومئُ إلى شيْءٍ من التَّزهيد في المالِ » وإنما العجلةُ فِي الفهمِ هي التي تفضِي إلى ذلك ، وإنما يقُول إن الشّبع الحقيقيّ والغنَى الحقيقيّ هو غِنى النفسِ ؛ لأن هذا الغنى إذا وجد تَجدُ النفسَ قد غَنيتْ عند فقد العرضِ ، وقد غَنيتْ أيضًا عند كثرة العرض ؛ لأنَّ غناءها لَم يأتها من خارجها ، وإنّما يأتيها من داخلها . . . » [1]

* * *

والشّيْخُ يلفتُنا إلى أنّه حين عمَد إلى أحاديثِ دَعت إلى التّحاجز عن آثامٍ عدّت في الشرعِ كبائر ، إنّما عمد لبيان وجه وَصمها بأنَّها كبائرُ ، فالمرءُ مفطورٌ على أن يُذنب ، والسَّوي مفطورٌ على أن يستغفرَ ، بيْد أن من الذنوب ذنوبًا لا يطيقُ الكونُ والحياةُ والإنسان أثرَها لِما لها مِن فحُولة في الأذى وسُبوغ في الإفساد ، وَصْمُها بأنَّها كبائرُ غيرُ راجعٍ إلى ذاتِها ، ولا إلى صانِعها ، بل إلى أثرِها فحولةً وسبوغًا . هي « ما كانت أكبرَ الكبائر وأعظمَ الذُّنوبِ إلا لأنّها تُصِيبنا نحنُ بأكبرِ الضّررِ ، وأعظمه وأنَّ الله سُبحانهُ وَتَعَالَى ما غضبَ مِن عبدٍ كان مِنه شيْءٌ إلا شيئًا يَضرُّنا نَحنُ . . . .

ولم أَجد في الدّين شيئًا يرضاه ربُّنا إلا وهو خيرٌ لي ولك ، ولم أجد في الدّين شيئًا يكرهه ربنا إلا وهو شرٌّ لي ولك . . . » [2]

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢٧٢/١ .

(٢) المرجع السابق ١٢٧/١ .

يتجلي البعدُ الإصلاحي في لفتنا إلى أنّ إلحاق الضرر بالآخر أَيًّا كان الآخرُ وأيًّا كان الفعل هو مناط الوَصم للفعل بالكبيرة :

لا تنظر إلى فعلك ، وإلى من فعلته معه ، وانظر إلى أثر فعلك ومجاله ومقداره ، وانظر إلى باعثك على اقترافِه ، فلست مفتقرًا إلى أن يُقال لك هذه كبيرة ، وهذه صَغيرة .

أنت المرجع بنظرك في أثر فعلك . هنا يقال : «استفت قلبك» وليس كلٌّ بأهلٍ لأن يَسْتفتي قلبه ، فثم قلوبٌ أشربت المنكر فاستحال عندها معروفًا . فأنّى لِقلب لا ينامُ صَاحبُه إلا على معصية ، ولا يستيقظ إلاّ على مثلها أن يُستفتى ؟!!!!

ومن ثمَّ كان ذنبُ العلماءِ والأمراءِ في ما يتعلق بحقوقِ العباد أعظم جرمًا وإفسادًا من ذنب غيرهم ، لأنهم الأوسع أثرًا ، ولأنَّهم محل النّظر والاقتداء .

إذا أقيم هذا العيارُ الإصلاحي في حياتنا تحقّق لهذه الأمة سلامها الاجتماعي على نحو يُعينها على أن تتبوّأ مكانتها التي خلقت لتتبوّأها .

* * *

من معالم هذا البعدِ الإصلاحي في قراءته أنّه يلفتُ إلى أنّ استِقامة الحياة في الناسِ لا تكونُ بكثرةِ القوانين بل بإقامةِ النَّفسِ الإنسانيّة على مبدأ الخُلق النّبيل ، والأخذ به وأنّ هذا الضابِط الخلقيّ إذا قام في نفوسِ جمهرة الأمّةِ ، استقامت حركة الحياة ، ولم تكن بحاجةٍ إلى قيام مجالس تشريعية تصطنع القوانين وتصطنعُ ثغراتها لينفذ من خلالها صانعوها ، ولتطبق على من لا يحسنون رؤية هذه الثغراتِ واستغلالها ، فكثرةُ قوانينِ العقابِ في أيِّ أمَّة آيةٌ بينةٌ صريحةَ الدَّلالة على انتشارِ الفسادِ فيها ، وليْسَ لقومِها من الأخلاقِ ما يردعُهم ، ممّا يسجل على القائمين على تربية أبنائها أنهم أضاعوا من تولوا

أمـرهم بـدْءًا بالوالـدين والمعلـم والإمـام في المسـجد والداعيـة والإعلامـي والسياسيّ . . . . إلخ كلُّ أولئك مسؤولون عن افتقارِ النّاس إلى ما يردعُهم عن الشَّرِّ من داخلهم .

يقُول في مفتتح الجزء الثاني وهو يشرح قول النبي صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ : « لا ألفين أحدكم يجيء يومَ القيامةِ على رقبتِهِ بعيرٌ لَهُ رغاء ... إلخ » : « إنَّ العربَ كانُوا فِي جاهليتهم يمتدحون ببراءةِ سَاحتِهِمْ مِن الخزايا كالغدر والخيانةِ والغلول،وكانوا في هذه الجاهلية الّتي ليس فيها قانونٌ، وليس فيها حكُومةٌ ، ولا سُلطانٌ ، كان تضبطُ حياتهم مجموعةٌ من القيم الملزمةِ منها التبرئُ من الخزايا . وكانوا يُخاطبونَ صَواحباتهم بِهذه البراءةِ ، وكأنّها مِن أسبابِ القُربِ والحبُّ والصّبوةِ . وكانت المرأةُ الجاهلية تُحبُّ صَاحبَ القيمةِ الإنسانية . وكانوا يرفَعونَ لِواءً للغادرِ تشهيرًا بحساسته ....»[1].

هو بهذا يبرز مفارقةً جد وسيعةٍ بين القيم الخلقيّة في المجتمع الجاهليّ منذ أكثرمن خمسة عشر قرنا ، والقيم الخلقية في المجتمع العصريّ ، وكأنّه يهتف في ولاة الأمر على تنوع مستوياتِ ولايتهم عموما خصُوصًا : أنتم الذين حملْتم أحفاد هؤلاء إلى ما تعانون منه اليوم . إنهم غرس شمائلكم ، فهم يهتفون في آذانكم :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الزخرف:٢٢)

﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (الزخرف:٢٣)

ليْس صلاحُ حركةِ الأمَّة واستقامتُها بكثرة التَّشريعاتِ والقوانين والمَحاكم والسُّجون والمُعتقلات وسراديبِ التَّعذيب . صلاحها في القيام بحركة تعليميّة تربويّة أداتها لسانُ الحال قبلَ لسان المقال .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ١/٥٥٠، ٥٥١ .

مجمعُ الأمر أن حضور هذا البعدِ الإصلاحيّ في هذا السّفر متعدّدةٌ لاسبيل إلى إيجازِ القولِ فيها ، فضلاً عن بسطِهِ ممَّا يحملُ إلى أهميّة رؤيتِها في موطنِها من الكتاب[1]

* * *

(١) مِن تلك المواطن : ١/٥٦، ٥٩، ٦١، ٩١، ١٥٥، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٦، ٢٣٣، ٢٦٨ .

obeikandl.com

ثانيا : البعد التّربوي

الرّبانية سَمْتُ كلّ عالمٍ وداعية ، فهي رسالة الأنبياءِ والرّسلِ وهي مهمةٌ يفتقرُ صاحبها إلى أن يكون نصيبه من الحكمة والحلم والصبر لايقلّ عن نصيبِه من دقائقِ العلم ، جزئياتِه وكلياته ، فقليلٌ من العلمِ مع كثيرٍ من الحكمةِ والحلمِ والصبر أجدى نفعًا في هذا البابِ ، والله تعالى يُقُول :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (آل عمران:٧٩) [1].

للعلماء في هذه الأمّةِ رسالة منسولةٌ من رسالة الأنبياءِ المتمثلة في إبلاغِ العبادِ مرادَ الله تعالى الشرعيّ منهمْ ، يكشفون لهم بلسانِ الحال ولسانِ المقال ما يُحبّه الله سُبْحانَه وَتَعالَى لهم ، وما يسخط ، فالعلماء يحملون العلمَ ويستثمرونه لهذه الغاية ، ومن ثَمَّ كانوا ورثة الأنبياءِ .

العالمُ ليس بالَّذي يحملُ العلم فحسبُ ، وليس بِالَّذي يستخرج ما ليس بموجود من العلم ما هو موجود ، فحسب ، بل العالم هو الذي يُرَى العلمُ القائمُ في لسانِ مقالِه ، وفي صفحاتِ أسفارِه قائمًا في لسان حالِه حاضرًا في

---

(١) قوله تعالى : ﴿ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ أعرف له وجهين من المعنى :
الأول : الرَّبانيّ العالم بربّه سُبحانهُ وَتَعَالَى المطيع له .
الآخر : الّذي يربّي الناس ويصلحهم .
وهما وجهان لا يتعارضان ، بل الأول شرط في الثاني لأنّهُ لن يكون معلمًّا النَّاس ومصلحهم إلا إذا كان عالما بربه سُبحانهُ وَتَعَالَى مطيعا له ، فمن قال بالأول نظر إلى الشجرة ، ومن قال بالآخر نظر إلى الثَّمرة

سلوكه ، وفي علاقته بالله تعالى ، وبنفسِه وبالكون والحياةِ والإنسانِ ، فتكون ثمرة رياضِ علمِه تربية وتزكية .

البُعد التربويُّ بلسانِ الحال ولسانِ المقالِ في عِلم العالم هو الغاية التي يجبُ أن تكونَ كلُّ جهود العالم مساقة لتحقيقها .

ومن أنعمَ الله تعالى عليه بِصحبة الشيخ كتابًا ومجلسَ علم ، وبصحبته في حياته يدرك أنَّ الشَّيخَ مهمومٌ جدًّا بتحقيقِ هذا البُعدِ ، والوفاءِ بكثيرٍ من حقّه . وأنت تقرأ سفره : (شرح أحاديثَ مِن صَحيحِ مسلم) تجدُ معالمَ ذلك وملامحَه تَتَوافدُ في بصرك وبصيرتك . ممَّا يجعلُ التسليم بعظيم حضور هَذا البُعد في هذا السِّفر أمرًا لا يحتاج أحدٌ أن يُدلّ عليْه . وما أذكره هنا إنْ هو إلاَّ نزيرٌ من كثير لا يُطيقُ المقام الوفاءِ بحقه .

كان الشيخ حفيًّا بتربية طلاب العلم في مجاهدتهم في طلبِ العلم ذلك أنَّ طلب العلم له أصولٌ وضَوابط وآدابٌ بغَيرِ العلمِ بها واستحضارِها في أثناءِ الطَّلب ، والتَّمسك بها ، لا يكونُ لطلبِ العلم قيمةٌ البتة .

والإعراب عن صنيع القائمين للعلم بأنَّه (طلبُ علم) يهدِي في دقّةٍ وإحكام إلى طبيعة هذَا الفعل ، وتكاليفه واستحقاقاته ، فالطلبُ في لسان العرب يكثر إطلاقه على ملاحقة الجيش أوملاحقة الصائد فريسته ، وكلُّ هذا لا يتحقَّقُ إلا بخبرةٍ فِي الطّلب وبعزيمةٍ وبامتلاكِ الأدوات وبامتلاك مهارة استعمالِ هذه الأدوات ، ثُمَّ بالصّبرُ على ذلك . وبالإصرار على تحقيق هذه الغاية .

كلُّ ذلك أفهمُه من الإعراب عن هذا الفعل بأنَّه (طلب) وأنَّ فاعله (طالبٌ) ثم أنظرُ فِي المطلوبِ ، فإذ هو (العلم) .

لوشئتُ أن أترجم هذه الكلمة لضاقت عليّ لغتى ، ووقتي ، وجهدي .

ولو شئتُ أن أَقول هو (الحياة) فبغيره لا قيمة للحياة أوْ شئتُ أن أقول

ـ وهذا عندي أجلّ ـ العلم هو (الآدمية) التي هي مناط التكريم المختصّ به آدم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وذريته .

ولو شئتُ أن أقولَ طالبُ العلم إنّما هو طالبُ وراثة النّبي صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ لكنتُ المستدركَ الصّواب . ولكنتُ على الحقِّ المبين فأيُّ فعل هوأكرم من هذا؟!!! وأيّ مسؤوليّة هي أثقلُ من هذه المسؤوليّة ؟!!!

من هنا تجد مجالات تربية طلاب العلم خاصّة والمسلم والإنسان عامة في صنيع الشّيخ أسفارًا ومجالسَ علمٍ جدَّ كثيرةٍ ومثيرةٍ أيضًا .

الشَّيْخ جدّ حفيٍّ بأن يجعلَ طلابَ العلم يقيمون سنةً من جليل السّنن : أن تطعم من عملِ يدك ، ففي هذا من الانعتاق من العوزِ للآخرين ربقة التبعية المذلة ، ومن غلّ التقليد الأجرد من التبصر ، فيدعو طلاب العلم أن لا يكتفوا بما يقولُ هو في فهم البيان ، فهذا صنيعُه هو ، وعَليهم أن يمارسُوا هم صِناعة طعامِهم بأنفسِهم ، كيما لا يحرموا أنفسَهم مِن نعمة التَّلقّي والفهم ، فإنّهما عنوان الآدميّة ، ولهما لذَّةٌ لا يزهَدُ في تحصيلِها والإحاطة بها إلاَّ مَنْ كرِه أن يكونَ من ولائد أبي البشرِ سيدنا آدم عليْه الصلاة والسّلامُ . ومن استغنَى بعقلِ غيرِه فقد كفرَ بنعمتِ الله تعالى عليه ، وكان صنيعُه هذا أقربَ إلى أن يتهم الله تعالى بأنّه وضع نعمتَه في من ليس لها بأهلٍ ، وتلك التي لا يحوم حولها عاقل .

إنّه على قدر ما في أن يفْهَمَ لك غيرُك من الذُلَّ أنت واجدٌ من اللَّذة والعِزة فِي أن تفهَم لنفسِك بجوار فهم غيرك .

إن استجداء الفهم أذلُّ بكثير من استجداء المَطعم ، والمشرب ونحو ذلك . وتسولُ الفهوم أدخَلُ في معرَّة الدَّهر ، فكيف بقومٍ يَتفاخرون باستجداء فُهوم غيرِهم . !!!

روى البخاري في كتاب (البيوع) بسنده عن الْمِقْدَامِ ـ رضى الله عنه ـ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ « مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِىَّ اللَّهِ دَاوُدَ ـ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ـ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ».

وأولى النّاس بالتخلق بهذا الهدي النَّبويّ هم أهلُ العلمِ وطلبتِه ، وأولى الطعام بأن يصنعُه المرءُ بنفسِه هُو طعام القُلوب والعُقول والنُّفوسِ والأرواح والألسنة . وليس أذل مِمّنْ يستطعمُ طعامَ عقله على موائد الأعاجمِ لسانًا وعقلاً وخلقًا فيَزدَردُ فتاتهم ورجيعهم .

يقُول الشيخ : « أحاولُ أن أتذوق المعانِي وحدِي ، وأن أنصحَ مَن أخاطبهم بِقلمي ولِساني أن يتذوقُوا المعانِي وحدهم .

وألا يجلسُوا جلوسَ المساكين على قارعة الطريقِ حتّي يَتصدّقَ عليْهم متفيهِق ، ويُحدثهم بأسرارِ البيان . وَعليْهم أن يتأكدوا أنّ فطرتهم التي فطرهمْ الله عليها يُدركُ أسرارَ البيانِ الأفضل .

وأنا لا أحدثك عن أسرارِ البيانِ ؛ لأنه لا طاقة لِي بذلك ، وإنّما أُحدّثك بِما وقع فِي نفسِي مِن الكلامِ الذي لا أقرؤه لك ، وإنما أقرؤه معك»[1] استطعم قوله « . . . مِن الكلامِ الَّذي لا أقرؤه لك ، وإنّما أقرؤُه معك» لا يقوله إلاَّ ربانيٌّ : يربّي العقولَ والنفوسَ ، لِتنهضَ مِن طورِ الطُّفولةِ إلى طور الفتوّة والفحولةِ .

ويقُول : « وراجع أنتَ ؛ لأنّ مراجعتك لك أجدرُ بِك مِن مراجعتي لك ، وأجدرُ ما فِي البيانِ ما يذوقُهُ الطبعُ ، وليس ما يكتُبُه الغيرُ »[2]

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٦٩١/٢ .
(٢) المرجع السابق : ٣٩٥/١ .

« وقلتُ كثيرًا : إنّه ليسَ أنجعَ ، ولا أقربَ فِي إدراك أسرار البيانِ مِن مراجعة النّفسِ ؛ لأنّ هذا الإدراك مِن الفطرَةِ ، والمرجعُ الأوَّلُ فِي الَّذِي يتعلّقُ بالفطرة هوالنفسُ »[1]

وليس هذا دعوة إلى أن يقوم كلٌّ ولم يتخذ الأسبابَ المحقِّقة له حسنَ الفهم والتذوق ، فيقتحم البيان ويَقول فيه ما يخطر على قلبِه .

مثل الشيخ لا يقُولُها . هُو يَدعُو طُلاَّبَ العِلمِ أن يُحيطُوا بِما قالت العلماءُ فِيما هُم قائِمون للنَّظرِ فِيهِ ، أَن يُبصِروا مناهِجَ تَفكيرِهم وتَعبيرِهم ، وَأَن يُبصِروا مَداخِلِهم إلى الفَهمِ ، ومَا اتَّخذُوه مِن أدواتٍ لِتحقيقِ القيامِ لفريضةِ الفَهمِ . فإذا مَا فَعَلُوا وجبَ عليهم أن يقومُوا ، لِكيما يُمارسُوا بأنفسِهم تفعيل نِعمة الفهمَ الرَّشيد .

ترى هذا حاضرًا أيضًا في شَرْحُه أحاديثَ منْ صَحِيحِ البخاري . تسمعه يقول : « وراجعْ سبك الكلامِ وتأمّلْ ، وتفقد وضَعه على لسانك ، وذقْ الكلمات ومواقعها ؛ لأنَّ كلَّ شَيءٍ فِيه بِحسابٍ ، وكانت « عائشةُ » رَضِيَ اللهُ عَنها من أعلم الناسِ بما يخرجُ من رأسِها ، ومن أعلم النَّاسِ بمواضعِ الكلام »[2]

وأنت ترى غير قليلٍ من الكاتِبين ، يقولون : انظر ، وتأمل ، وراجع ، ثُمَّ يمضي غير متخلّقٍ بما أمر القارئ به ، ولكن شيْخنا ، لم نعهد فيه ذلك البتة ، عهدناه أعزه الله تعالى لا يقول لك ذق وتأملْ إلا مِن بعد أن يفرغَ مِن النّظر والتأمل والاستطعام والذوق والإبانة عن ذلك ، ثم بعدها يقول لك تأمل ، وذق .

وكأنّي به يقول لي : إيَّاك إيّاك أن تستغني يما سمعت مني ، بلْ إيَّاك أن تستكفِي بما قلتُه ، إن من وراء ذلك ما أنت أجدرُ بأن تأخذه بيمنك من مكنونه ،

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/٤٠٠ .
(٢) المرجع السابق : ١/٨١، ٨٢

فما أنا إلا منار على جنبات الطريق ولست بالحمالك إلى الغاية . . كذلك أدَّينا الشَّيخ

* * *

وأنت ترَى هذا واقعًا عيانًا في صَنيعِ الشّيخِ فيما بيْن يدَيْك : ما قام لِقراءتِه مِن أحاديثِ صحيحِ مُسلم وفهمِه ونشرِ ما فهمَه قد سبق لكثيرٍ من أهل العلم النّظر والتَّفكير والتَّعبيرِ ، وهُو قد قرأَ وأحاطَ وتبصَّر ، كما تراه قائمًا في فهمه وبيانه ، ثم عمَد إلى أن ينظرَ مِن غير الجهةِ الَّتي نظرَ مِنها الآخرون ، أن يثوّر من البيان ما لم يثوره الآخرون ، فكان صنيعه إضافة لما كان من العلماءِ قبلُ ، صنع ممَّا هُو موجودٌ ما ليس بِموجودٍ ، لأنَّ الشَّيْخ لا يبغض في طلب العلم كمثل اجترار ما كان قبلُ ، وما عهدتُ الشَّيْخ قد اعتمد على كتاب غيرِه يدرّسه لطلابه طيلة قرابة نصف قرن صحبت فيها عقله وقلمه ولسانه . ولم يكن ينقلُ لنا ما هُو قائم في أوراقِ السَّابقين عليه ، كان يُعمل عقله ولسانه ، فيقول ما يُنعمُ الله تعالى به على طلابه ، فيجريه في قلبه وعلى لسانه .

وهذا كان له عظيمُ الأثر في ثلّة من تلاميذِه ، يجاهدون في أن يسلكوا كمثل مسلكه ، تحدثًا بنعمت الله تعالى عليْهم ، وبرًّا به أن يرَى لصنيعه فيهم أثرًا حسنًا قائمًا بيْن عينيه . فكأنَّها عاجل بُشراه .

* * *

ومن هذا الباب ما تراه وهو على مائدة ما رواه مسلم في كتاب «الإمارة» من صحيحه بسنده عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ «سَتَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ» . قَالُوا أَفَلاَ نُقَاتِلُهُمْ قَالَ «لاَ مَا صَلَّوْا».

يستطعم قوله ﷺ : «فتعرفون وتنكرون» فإذا هي «كلمةً من أجلّ الكلمات وأصفاها وأحلاها ، وأنقاها وأوجزها»[1].

وهنا يستشعرُ أن ما أعربَ به عن هاتين الكلمتين ربّما يحسب القارئ أن فيه من التّجوز ، فيؤكِّد أنَّه إنّما ينطقُ بما أدرك .

وهذا مسلك من مسالك الاستنفار إلى إعمال القلبِ في الكلمتين ليستطعم ما فيهما مما أنبأ الشَّيخ عنه فيهما .

وهذا مسلكٌ تربويّ إغرائيّ يلجأ إليه الأشياخ حين يعزّ عليهم أن لا يكون لطالبي العلم منه نصيبٌ .

وكأنَّي بهم حين يغدون في ذلك السبيل يستحضرون في قلوبهم ما رواه الشيخان في كتاب «الإيمان» من صَحيحيهما بسندهما عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»

العلم الذي نقوم له وفيه «علم البلاغة العربي» علمٌ لا يقوم فيه إلا من مأمّه توطين الإيمان وتفعيله في حركة الحياة . فهو علمُ سلوكيّ أي الغاية من إنفاق العُمر والجهد فيه هو حسن السلوك إلى الله سُبْحانَه وَبِحمدِه ومن طلبه لغير ذلك فقد غبن نفسَه ، وليس أحمق ممن يغبنها . فمن طلب هذا العلم ليستمتع بطلبه بما فيه من لطائف جمال الكلمة وسحرها وكفى ، فهو في خُسر ، فكيف إذا ما طلبه لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ

* * *

وممّا هو حريصٌ عليْه في تربية طلاب العلم تثويرُه العزم إلى دراسةِ بيانِ الوحْي دراسةً علمية ، وتسجيلِ ذلك ورقنِه بالقلمِ ، والرَّغبةِ عنْ الاستغناءِ

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٩٤/١ .

بتذوّق ذلك قراءةً أوسماعًا ، فإنَّ لتحليلِ البيان بالقلمِ مَا ليْس لغيرِهِ ، فالرَّوِيَّةُ الَّتي هِي خَدين التَّحليل بالقلم ، والمُراجعة والمُفاتشةِ أقدرُ على النَّفاذِ والضَّبطِ والإحكامِ .

يقُولُ الشيخ : « الّذِي جرّبْتُهُ هُو أنَّ تحليلَ البيان بالقلمِ يُظهرُ من خفَايَاهُ مَا لا تُظهِرُهُ القِراءَةُ ، ولا يُظْهِرُهُ السّماعُ حتَّى إنّنِي كُنْتُ أرَى أنَّ تَحليلَ البيان بالقلمِ فِي الحديثِ والقُرآنِ والشّعرِ يَكشِفُ منْهُ مَا كانتْ تَكْتشِفهُ الأذنُ الواعيَةُ الّتِي نَزلَ القُرآنُ عليْها ، وأنّهمْ لَمْ يَكونُوا فِي حاجةٍ إلَى تفسِيرٍ ، بَلْ ، ولمْ يَكونُوا فِي حاجةٍ إلَى مَنْ يَسْتخرجُ لَهمْ الأحكَامَ مِن الآياتِ الّتي سَمعُوها ؛ لأنَّهُمْ كَانوا يَعقِلون كلّ مَا فِيها مِن أحكامٍ ، وكَانُوا إذَا حَفِظُوا آيَةً لَمْ يَحفَظُوا غَيْرَها إلاَّ بعدَ العملِ بِها ، وكانَ العملُ بِها لا يَحتاجُ إلَى بيانٍ »[1]

كأنِّي بالشّيخ يحملُنا طلاَّبَ العلمِ إلى البصر بأمريْن رئيسيْن :

الأول : هو العملُ بما جاء به بيانُ الوحي . فليس كمثله مُثوّرًا لِمَكنونه ، ومستجمعه ومسْتنميه . فمن عَمِلَ بما علم تأطَّد ، وتمدّد ، وكان له بعمله بابًا لمزيدٍ من البصر بما هو غائرٍ فيه من دقائقِ العلم ولطائفِه .

وهذا يبين الفرق بيْن حال ما نعلمُ الآن في قلوبنا ، وحال ما كانوا يعلمون في قلوبهم .

ما نعلمه كأنَّه بذرةٌ في أرضٍ سَبخة ، وما يعلمونَه هو البذر في الأرضِ النّقية الفتية خصُوبةً :

﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ (الأعراف:٥٨)

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ٨/١ .

القرنُ بيْن العلم والعمل هو الفريضة الغائبة في منهاج التَّعليم في عصرنا ومصرنا ، حرصنا على تكثير المعلومات والمعارف واستجمعنا في قلوبنا فيضًا بالغًا من دقائق ما جاء عن الأعيان،ولكنَّا لا نكاد نقيم عُظمه في سلوكنا. هنالك مفاصلة بيْن العلم والعمل . مع أَنَّ كلَّ علمٍ يقتضِي العمل بِه . والعملُ غيثُ العلمِ[1] فقول الشّيخ : « وكَانُوا إِذَا حَفِظُوا آَيَةً لَمْ يَحفَظُوا غَيْرَهَا إلاَّ بعدَ العملِ بِها ، وكانَ العملُ بِها لا يَحتاجُ إِلَى بيانٍ » بيانٌ بالغٌ لطريق تنمية العلمِ وتقريره وتثويرِه ، لو أنّا تعلمْنا أَن نعدلَ في خدمة العلم بيْن تلقيه وتفعليه ، :

---

(١) لعلماء الحديثِ رواية موقف من عمل الراوي بما روى ، أو عدم عمله به أو عمله بما هو نقيضه . وجعلوا من ذلك عاملا من عوامل تقوية السّندِ وتضعيفه .
(ينظر : تدريب الراوي في شَرْحِ تَقريب النواوي . تأليف جلال السيوطي : تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف . ط(٢) ١٣٩٢هـ نشر : المكتبة العلمية بالمدينة المنورة . ٣١٥/١)

وممَّا يؤثر في شأن الإمامِ الشّافعيّ ما أنبأ بِه البخاري : « سَمِعْتُ الْحُمَيْدِيَّ يَقُولُ كُنَّا عِنْدَ الشَافِعِيِّ فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَسَأَلَهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَقَالَ قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَذَا وكَذَا فَقَالَ رَجُلٌ لِلشَّافِعِيِّ مَا تَقُولُ قَالَ : سُبْحَانَكَ تَرَانِي فِي كَنِيسَةٍ تَرَانِي فِي بِيعَةٍ تَرَى عَلَى وَسَطِي زُنَّارًا أَقُولُ لَكَ قَضَى رَسُولُ اللَّهِ : ﷺ وَأَنْتَ تَقُولُ لِي مَا تَقُولُ »
(ذم الكلام وأهله ، تأليف : أبي إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي (ت:٤٨١هـ) تحقيق : عبد الرحمن عبد العزيز الشبل . نشر : مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة النبويّة . ط(١) عام : ١٤١٨هـ . ١٣/٣، ١٤)

والله تعالى نعَى علي من علم ولم يعمل ، ومن قال ولم يفعل ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ** ﴾ (الصف:٢،٣) ﴿ **مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ (الجمعة:٥)
المفاصلة بين العلم والعمل هو الدَّاء القاتل والعقبة الكؤود أمام تأثير الدَّعوة في النَّاسِ

نَمنحُ تفعيله فينا بالعمل به عـديلَ مـا ننفقـه في تحصـيله مـن الوقـت والجُهـد والاعتناء لكان لنا في هذا شأن آخر غير الذي نحنُ فيه .

والعملُ بما عُلم لا يمنحُه هذا فحسبُ بل يمزجُه بالحكمةِ وسياسـةِ العلـم وهما لا حياةَ لفاعليةِ العلمِ في الأمّةِ بغيرهما ، فأنت لا تجدُ البتة ذا فيوضٍ من العلم والمعارف ذا حكمة وسياسة وهو غير مقيم ما عمل في حالِه ومسـلكه . إنَّ العملَ بالعلم لسانُ إبانة جدّ نافذٍ وجدّ مُحيطٍ .

الآخر : التَّحليل بالقلم . ذلك أداة حفرٍ في البيان وسـبيلُ مراجعـةٍ وتفتـيشٍ وضبط ، وتحرير . وكأن شبا القلم يتغورُ في بنيـة البيـان ، فيسـتخرجُ مـا هـو مكنوزٌ فيه . ومخرجُ هذا التؤدةُ والرَّويّةُ ، والمراجعـة ، والمنـاظرةُ . كـلُّ ذلـك مُعين على أنْ ينثرَ شبا القلم ما يَعجزُ غيرُه عن أن ينثرَه[1].

---

(١) عظم العلماء تجد مرقونُهم أعلى من ملفوظهم ، فالبيان بالقلم أوفرُ عطاءً وأحكم تحريرًا من البيان باللسان وقليلٌ أولئك الذين يكون بيان أقلامهم عديله بيان ألسنتهم . وكان الإمامُ الشافعيّ إذا حاور وحاضر تلاميذه كان يحلق بيانُه في سماوات الإبداع ، فإذا كتب كان يميلُ إلى الإيضاح والتنزل على أحوال القراء .

« كان الرّبيعُ يقُول : « لَو رأيتمْ الشّافعيّ وحسن بيانِه ، وفصَاحةَ ألفاظِه لتعجبتم ، إلاّ أنّه كان يجتهدُ فِي مصنفاتِه فِي الإيضاح ، وتقريبِ المعاني إلى الأفهام ، فكان يترك الفصَاحة »

(مناقب الإمام الشافعيّ ، تأليف الفخر الرازي (٦-٦هـ) تحقيق : أحمد حجازي السقا . ط(١) ١٤٠٦هـ نشر : مكتبة الكليات الأزهرية . القاهرة ص : ٣٦٣) .

الشافعي كان يراعي مقتضى حال تلاميذه وهـم في الطبقـة العليـا مـن التلقّـي والفهـم ويراعِي حال منْ سيقرؤون كتبه ، هو يعلم أنـّه سَيأتي زمـان سـتقعُ كتبـه في أيـدينا فكان مراعيا لحالنا في الجهـلِ والضـعف ، فـ« ال » في قولـه : « الفصـاحة » هِـي لام العهد الذكري أى النصاحة العليَّة المدهشة في التى محاوراته اللسـانية لتلاميـذه . ومـن يقرأ بيان الشّافعيّ في كِتابه « الرّسالة » وكتابـه« الأم » يـدرك علـو بيانـه ودقتـه ، وهـو الذي قال عنه الربيع « كان يترك الفصَاحة » فكيف كانت فصَاحته وهو يحاور تلاميـذه ويُحاضرهم ؟!!! .

وكأنّي بالشّيخِ يغرينا بأن لا نَخرجَ على النَّاسِ إلا بما كان نِتاج مُدارسةٍ وتقييدٍ بالقلم قبل نفثِه في أسماعِ النَّاسِ ، فلا يكلّم المرْءُ النَّاسَ في العلم إلا مِن بعدِ بحثٍ وتفتيشٍ ومُدارسة ومُراجعة ثمَّ يرقِنُ بقلمِه ما انتهت إليه مراجعتُه ومفاتشتُه . فلسْنا في عصرٍ يكونُ منتَجُ البديهةِ وعفوِ الخاطر ممّا يُطْعَمُ ، فقد فاتَ عصْر ذلك فوتًا وسيعًا .

* * *

وممَّا هو قائمٌ في مجال التَّربية لطلاب العلم ، ولا سيّما طلابُ علم البلاغة العربيّ القائم لحسنِ الفهمِ عن اللهِ سُبْحانَه وَبِحمدِه ، ولحسن الفهمِ عن رسُولِه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ تبيينه مناط العنايةِ العظمَى في دراسة بيان النّبوة ، وأن لا يتخذ الاشتغالَ بتحليل الفنونِ البلاغيّةِ في ذلك البيان غاية تحطّ الرِّحال عندَها . فبيان النّبوّة ليست الغاية منه كمثل الغاية من كثِير من بيانات البشر عند أهل العلمِ بهذه البيانات ، وهذا يجعلُ المسؤولية الرَّئيسة لطالبِ العلمِ ببيان النبوةِ أنْ يبْحث عن منهاجِ النبيّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ في تسْكينِ المعاني في القلوب لا في العقول .

ممّا اتخذَه الشَّيخُ همًّا يُقيم أمرَه على إحسانِ حملِه ، وعَلَى الوفاءِ بِبعضِ حَقه على قَدرِ الطَّاقة ، وعلَى قَدْرِ العَوْنِ الإلهِيِّ ، أن يتَجاوزَ بالعِلْم بكِتابِ اللهِ سُبْحانَه وَبِحمدِه وبسُنة رسُولِه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ مِن تسكينِه العُقول ، فإذا هُو مَخْزُونُها ومكنُونُها ، يبذلُه على الأَلْسنةِ في الأسماعِ ، لا سبيلَ إلَى بذلِهِ إلاَّ ذلِك ، بلْ الهمُّ الأعظَمُ لِلعالِم وللمُبينِ أنْ يَجعلَ مَسكنَ مَعانِي الهُدَى القلوبَ ، وأن يَكونَ سبيلُ إخراجها وسلْكها في قلوبِ الآخرين هو لسان الحال ، ولسانُ المقالِ معًا ، فلا يُستغنَي بلسانِ المقالِ عَن لِسانِ الحال ، فإنَّ لسان المقالِ إذا أُفردَ بالمسؤولية عجزَ عَنْ حملِها بلْ ربّما أفسَدَها ، بيْنَا

لسانُ الحال إذا لَم يكنْ سبيلٌ إلى أنْ يُؤاخِيه لسانُ المقالِ ، قالَ لسانُ الحالِ : أنا لها . .

يقُول الشّيخ : « إنّ تسْكينَ المعانِي ، والقيمِ المتضمّنةِ فِي بلاغةِ النُّبوّةِ فِي الطّبعِ الإنسانيّ ، وليْسَ فِي الذّاكرةِ الإنسانِيّةِ أمرٌ مهمٌ جدًّا[1]

وهذه المعانِي مِنْ شَأنِها لا محالةَ أنْ تنتقلَ بِالإنسان مِن طورٍ إلَى طَوْرٍ ، بلْ ، وأنْ تقْذِفَ بِهِ إلى مرْحَلَةٍ أرْقَى ، وأعلَى ، وَأكرَمَ ، وَأنْبَلَ .

إنَّ تسْكينَ هّذِهِ المَعانِي فِي سُوَيْداءِ القُلُوبِ كانَ مِنْ أَهدَافِ بَلاغَةِ النّبوّةِ وإننَا ندرسُ بلاغَةَ النّبُوّةِ مِنْ جِهَةِ مَا بُنِيتْ عَلَيْه منْ فنونٍ بَلاغِيةٍ ، وهَذا جَيّدٌ جدًّا ـ ولكنّنَا أغْفَلْنَا الْغَايةَ مِنْ هّذِهِ الفُنُونَ ، والْغَايَةَ مِنْ أنّه كانَ أَفْصَحَ العَرَبِ ، وكانَ لِسَانُه أَقدَرَ أَلْسِنةِ النّاسِ فِي قّذفِ الْحقِيقةِ الدّينيةِ فِي سُويداء الرّوحِ الإنسانيّةِ ؛ لأنَّ المسْألةُ ليْسَتْ خِطابًا مألوفًا ، وإنّما هُو خِطابُ تغييرٍ .

والفَرقُ كبيرٌ جدًّا بيْن خِطاب أو تعَليم يبْقَى بِه الحالُ عَلَى مَا هو عليْهِ ، وخِطابٌ أوْ تعليمٌ يَكونُ رِيحًا تَقْتَلِعُ الفَسَاد والإفسادِ ، وتغرسُ الصّلاحَ الإصْلاحَ ...

واعْلَمْ أنّ البلاغَةَ لَمْ تكنْ خاصّةً بِرسُولِ اللهِ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ، ومَا بعثَ اللهُ نبيًّا إلا وهُو أبلغُ قَومِهِ ، وأفصَحُ قومِهِ ؛ لأنَّ مِنْ أهمّ

---

(١) أفهم من كلمة « مهمٌّ جدًّا » أن هذا الشَّيءَ يقيم في القلبِ همًّا لا يدعُ صَاحبه تقرُّ عينه بنوم من قبلِ أن يوفيه حقه ، فهو الأمر المستفزّ الباعث على خالِصِ القصد ، وصَادق العزم ، وفتِيِّ الفعل ، ومتقن الصنعة . ذلك هو « المهم » ومنه « الهمة » و« همام » وهو من أسماء « الأسد » وقوله « جدًّا » من الجد الذي هو الإعظام ، يقُول سيّدنا أنسُ ابن مالك رَضِيَ اللهُ عَنه : « كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إذا حَفِظَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ جَدَّ فِينَا » أي عظم قدره ومنزلُه فِي أَعيننا وجلَّ قَدْرُهُ فِينَا فقوله « وهذا مهم جدًّا » أي مقيم الهم والاعتناء بِه في القلبِ قيامًا عظيمًا يقطع عمّا عداه .

صِفاتِ الرّسُلِ التّبليغِ ، والفِطنةُ ، وهَذَانِ هُما جمَاعُ البلاغةِ فِي كلِّ أُمّةٍ ، وفِي كلّ لُغةٍ »[1]

يهدِي الشَّيخُ إلى أنّ الانشغالَ بتفحّصَ الفُنونِ البلاغية فِي بيانِ النبوةِ عمَّا يحملُه هذا البيانُ ، والانشغالَ عن منهجِه في تسكينِ معانيه في القلوبِ وتفعيلها لتحدث تغييراً من حالٍ إلى حال أسمَى وأجدَى حتى تبلغَ بصاحبِ تلك القلوبِ الحيّة المعافاةِ من داءِ الشُّبهةِ والعَصبية الحمقاء والهوَى الأكمَه إلى ما يرضاه الله تعالى منها . فيرضَى عنها ، الانشغالُ بذلك وحده هُو مِن التَّقصِير في النَّصيحة لرسول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ الَّتي هِي الدِّينُ كَما جاءَ بِهِ بيانُ النّبوّةِ .

وهذا يحملنا إلى أنْ نَعبُر مِن الوفاء بحقِّ تلك الفنون البلاغيّةِ مِن النَّظر والتَّحْليلِ والتَّذوّق إلى ما تحملُه وإلى مِنْهاجِها في الوفاءِ بحقِّ ماتحمِلُه من معاني الهدي مِن حسن الاستطعامِ الذي تَزكُو بِه القلوبُ ، وتذكُو ، فتفْتَئِدُ . فمناط السُّموّ البيانيّ لكلّ نبيّ في قومِه ليس في أنَّه يأتي بصُورٍ وكلمٍ وتَراكيب ليس من مِعهود قومِه لطرافتها ولطافتها بل مناطُ السُّموُّ الأعظمُ هُو ما تحملُه هذه الصُّورُ والتَّراكيبُ ومَساقاتُها مِن عَلِيّ المَعانِي وجليلِها ومقتدِرها علَى التَّغيير إلى الأصْلحِ والأفلحِ . فَمَنْ لَمْ يَبْحثْ في بَيانِ النُّبُوَّةِ السّخاءِ فِي مناطِ هذَا السُّموّ البيانيّ ، كان قدْ ضلّ السَّبيلَ ، وكان عملُهُ فِي غيرِ مَعملٍ ، وكأنّي بالشَّيخِ يَحملُنا إلَى أن نجتهدَ أوَّلاً في تَحْقيقِ مَناط عملِ العقلِ البلاغيِّ ، ثُمَّ مِنْ بعدِ هذا التحّقيقِ والاطمئنانِ إليْه نَعمد إلى الاجتهادِ في فقه ما يَحمل هذا الَّذي هُو مَناطُ العملِ .

ولكلِّ بيانٍ مناطُ عملٍ ، فمناطُ عملِ العقلِ البلاغِيِّ في الشِّعر غَيْرُه مناطُ عملِه في بيانِ الوَحْي ، لأنَّ المحمولَ فِي الصُّورة ومَساقاتها فِي كلّ غيْر

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/٢٣٤، ٢٣٥ .

محمولِه في غيرِه . قدْ تتقاربُ الصُّورُ فِي مُكوّناتِها ، وفِي بعض تكويناتِها ، بيْن بيان الوحي وبيان السّحر ، ولكنَّ الَّذي لا يتقاربان فيه هُو محمول الصُّورةِ وفاعليتُه ، ومنهاجُ هذه الفاعليّة والتَّأثير والتَّغيير الّذي هو مناط عمل العقل البلاغيّ أولاً . في مقالةِ الشيخ تأسيسٌ لأصلٍ منهجيٍّ في صِناعة العقلِ البلاغيّ ، إذا لم يكن قائمًا فيه قيام وجود وإيجادٍ كان ذلك العقلُ عاملاً في غيرِ مَعملٍ وكان مُنْتَجُهُ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً . وتلك التي يفرُّ منها أولو الألباب .

* * *

ومما يحسن بِي أن ألفت إليه هنا أنّه كان من عطاء أبي الحسن الرمانيّ (ت:٢٨٦هـ) تعريفه البلاغَة في رسالته «النكت» بقوله : « إيصالُ المعنَى إلى القلبِ فِي أحسنِ صُورة من اللفظ » فكان تعريفه هذا لافتًا إلى أن البلاغة وظيفتها تسكينُ المعاني في القلوب ِوتوطينها فيها ، وكيما تفعل في تلك القلوب ما يرادُ لها أن تفعلَ فيها وبها جعل السبيل إلى ذلك الإيصال والتوطين الصورة الُحسنى ، فهذه الأحسنية لصورة المعنى تنفثُ في القلبِ ما يحمله إلى أن يخضع ويقنت لما استقر فيه من المعاني ، فالصورة الحُسنى ، لا تفتحُ أبواب القلوب للمعاني ، فحسبُ بل تُفعِّل هذه المعاني في تلك القلوب . وعلى قدر جلال المعنى تكونُ أحسنيّة الصُورة .

وإذا حسنت الصورة ولم يحسن المعنى كانت خضراء الدمن ، ولذا كان من دعاء رسول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ : « اللهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي »[1]

* * *

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان . رقم (٨١٨٤) ، والطبراني في«الدعاء» رقم (٤٠٤ ، ١٤٠٧) وصَححه الألباني في « إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل» رقم : (٧٤) وفي صحيح الجامع الصغير وزياداته . رقم (١٣٠٧)

ومن هذا ما تراه في قوله : «ولم أجد في الدّينِ شيئًا يرضَاه ربنا إلا وهو خيرٌ لِي ولك ، ولَمْ أجدْ فِي الدّين شَيئًا يكرهُهُ ربّنا إلاَّ وهُو شَرٌّ لِي ولك»[1]

قال : (ولم أجد في الدّين) ولم يقل (وليس في الدين شيْءٌ يكرهه ربنا إلا وهو شرٌّ لي ولك) ولو أنّه قالَ ذلك ما نقضَه شَيْءٌ ؛ لأنَّه حقيقةٌ مَخْرجُها العقلُ الصّريحُ قبلَ البَحثِ العلميِّ الاستقرائيّ في النَّقلِ الصّحيحِ ، ذلك أنّه لنْ يكونَ دينًا حقًّا إلاّ إذا كان كلُّ ما فيه مِن مأمورٍ بِه هُو ممَّا يرضاه الله سُبْحانَه وبِحمدِه ، ولا ينهَى عَن شيْءٍ إلا وهُو ممَّا يسْخطه الله جَلَّ جَلالُهُ . ذلك منطقُ العقل ، ولكنَّ الشَّيخَ نسبَ الأمرَ إلى نفسِه ، فقال (لا أجدُ) تعليما لنا أن لا نجعلَ من أنفسنا حكمًا لا يردُّ ، بل علينْا أن نَصِفَ أفعالنا وألاَّ نقيم حجازًا بينْ الآخرين وأفعالهم .

هو من بابِ الاعتراف للآخر بحقّهِ ـ وإنْ كان معانِدًا ـ في أن يفتِّشَ ، وأن يدقق ، فإنْ فعلَ ، فإنّه لا مَحالة مُنتَهٍ إلى ما انْتهَى إليْه تفتيشُ الشّيخِ ، وحينئذٍ يُدرك المُعاندُ أنّ ما سَمعَ مِن الشّيْخِ حقيقةٌ علميّة ، فأقلُّ ما تُحدثه هذه الحَقيقةُ عندما يواجه بها مِن قِبله صِراعٌ نفسيّ ، وهذا مُهمٌّ جدًّا أنْ تُحدِثَ فِي الآخر المُعاندِ صِراعًا بيْن الحَقِّ الّذي وَقَف عليْه بنفسِهِ والهَوي المُتَغَلْغِلِ في نفسِهِ .

ومثل هذا يجعل طالبَ العلم وقّافًا عندَ طاقتِه لا ينسبُ إليْها ما لا طاقة لها بِه ، يتنفج ويتبجبج : يفخر بما ليس له ، فيكونُ كلابس ثوبَيْ زُورٍ ، وهذا ليْس مِن حِليةِ طالبِ العِلم ، ولا مِنْ حِلية عاقلٍ .

* * *

ومن باب تربيته طلاب العلم ما تراه في تدبره ما رواه مسلم في كتاب (البِرّ والصّلة والأدب) مِنْ صَحِيحِهِ بسَنَدِه عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/١٢٧ .

« إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ ، فَقَالَتْ : هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ مِنَ الْقَطِيعَةِ .

قَالَ : نَعَمْ ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ ؟

قَالَتْ : بَلَى . قَالَ : فَذَاكَ لَكِ » .

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ۝٢٣ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ** ﴾ » .

(محمد:٢٢-٢٤)

ويعرض مذاهب العلم في تأويل الرَّحم ، وأنَّ البيانَ على سبيل التمثيل والتَّصوير وما يذهب هو إليْه من أنَّ البيانَ على الحقيقة ، ثُم يقول :

« ما دُمنا قَبِلْنَا أنَّ الله خلقَ السّمواتِ والأرض ، وقالَ لَهما ائتيا طوعًا أوْ كرهًا ، فقالتا أتينا طائعين ، فلا بدّ أن نقبلَ أنّه قالَ ذلك على وجهِ الحقيقةِ ، وقالتْ له على وجه الحقيقةِ . . . .

وحَملُ خطابِ الخالقِ علَى خِطابِ الخلقِ أقُولُ هذا ليسَ بواجبٍ ؛ لأنّ أمرَ الله فِي خلقِه يتجاوز حُدودَ المألوف ؛ لأنّ الخالقَ نفسه مُتجاوز حدود المألوف . . .

وهذا ممَّا لم أقرأه في كلامِ مَنْ يُؤخذ عنهم العلمُ ، فخذْ ما تراه ودع ما لا تراه ، ولا حرج عليْك ، وأرجو أن أكونَ أيضًا مِن الذين لا حرج عليهم »[1]

أفتقرُ إلى أن أقف وقفاتٍ في فقه مقالِ الشّيخِ :

قوله : « ما دُمنا قَبِلْنَا أنَّ الله خلقَ السّمواتِ والأرض ، وقالَ لَهما ائتيا طوعًا أوْ كرهًا ، فقالتا أتينا طائعين ، فلا بدّ أن نقبلَ أنّه قالَ ذلك على وجهِ الحقيقةِ ،

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٦٦٥/١ .

وقالتْ له على وجه الحقيقةِ» علمنا كيف نبني مذهبنا ـ ولاسيّما إن كان مخالفًا لجَمهرةٍ ـ على مسلمة لا سبيلَ لأحدٍ أن ينقضَها ، ابتدأ قائلا : «ما دُمنا قَبِلْنَا أنَّ الله خلقَ السّمواتِ والأرض ، وقالَ لَهما ائتيا طوعًا أوْ كرهًا ، فقالتا أتينا طائعين» هذه مسلمة ، فرتب عليها مذهَبَه : «فلا بدّ أن نقبلَ أنّه قالَ ذلك على وجهِ الحقيقةِ ، وقالتْ له على وجه الحقيقة» فإذا ما سلَّمتَ بالمُقدّمة ، فلاسبيل لك إلا إلَى أن تسلّم بالمذهب (النَّتيجة) ، فأنت محمولٌ بمنطقِ العقلِ المُعافَى من داء الشُّبهة والعصبيّة حملا فتيًّا على أن تسلم بِمذهبِه . ذلك منهاجٌ حِجاجي في الإبانة إفهامًا وإلزامًا .

ومنهجُ الشَّيخ في الإبانة والإفهام في هذا السّفر نحتاج إلى دراسته ، ولكنّ جُهدي الآنَ لا يُطيقُ الوفاء بِحقِه لوفرتِه وعمقِه ودقتِه ، ولعلّي أعين من يُريدُ ويُطيق إن شاء الله تعالَى

وقوله : «وحَملُ خطابِ الخالقِ علَى خِطابِ الخلقِ أقُولُ هذا ليسَ بواجبٍ ؛ لأنّ أمرَ الله فِي خلقِه يتجاوز حُدودَ المألوف ؛ لأنّ الخالقَ نفسه مُتجاوز حدود المألوف . . .» فيه ما قد تحسب أن الأعلى أن يقول (هو الواجب) ولكنّه لم يشأ أن يُصادر عليْك ، ويرغمك على أنْ ترفع يديك مسْتسلمًا ، هو لا يريد من طلابِ العلم أن يخضعوا عقولهم لغيرهم تقليدًا أجردَ .

ومخرج هذا ما أثر عَنْ سيّدنا عبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنه أنه قال : «ائْتُوا الأَمْرَ مِنْ تَدَبُّرٍ ، وَلا يَكُونَنَّ أَحَدُكُمْ إِمَّعَةً

قَالُوا : وَمَا الإِمَّعَةُ ؟

قَالَ : الَّذِي يَجْرِي بِكُلِّ رِيحٍ . .»[1]

---

(١) الزهد . تأليف أبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السِّجِسْتاني (ت:٢٧٥هـ) تحقيق : أبي تميم ياسر بن إبراهيم بن محمد ، وأبي بلال غنيم ابن عباس بن غنيم . ط(١) عام ١٤١٤هـ . نشر : دار المشكاة للنشر والتوزيع ، حلوان . ص٤٠،٤١

وفي رواية للطبراني في المعجم الكبير بسنده «لا يَكُونُ أَحَدُكُمْ إِمَّعَةً» .

قَالُوا : وَمَا الإِمَّعَةُ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟

قَالَ : يَقُولُ : «إِنَّمَا أَنَا مَعَ النَّاسِ إِن اهْتَدَوُا اهْتَدَيْتُ ، وَإِنْ ضَلُّوا ضَلَلْتُ ، أَلا لِيُوَطِّنْ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ عَلَى إِنْ كَفَرَ النَّاسُ أَنْ لا يَكْفُرَ» (رقم : ٨٧٦٥) [1]

والشيخُ بقولِه : «لأنّ أمرَ الله فِي خلقِه يتجاوز حُدودَ المألوف ؛ لأنّ الخالقَ نفسه مُتجاوز حدود المألوف . . .» تبيين لوجه مقاله (ليس بواجب)

أفهم من هذا أنّه أراد أن يقول لك إنّه ليس بواجبٍ أوجبه أنا عليك ، بل انظرْ مخلصًا متقنًا ، فإنك ستنتهي بنفسِك لنفسك أنَّه واجبٌ عليْك ، لأنّ أمرَ الله فِي خلقِه يتجاوز حُدودَ المألوف ؛ لأنّ الخالقَ نفسه مُتجاوز حدود المألوف . . .»

أراد أن يُخرجَ الإيجابَ عليك من نفسِك ، لا منه هو ، كيما يكونَ انبعاثك إلى التّسليم فتيًّا .

---

(١) وفي جامع الترمذي في كتاب (البر والصلة) بسنده عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «لاَ تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلاَ تَظْلِمُوا».

قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .

ورفعه إلى سيدنا رسُول الله ﷺ ضَعيفٌ ، . ضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذيّ . رقم : (٦٤) وفي ضعيف الجامع الصغير . رقم (٦٢٧١) وضَعيف التَّرغيب والتّرهيب رقم : (١٤٩٤)

ومن ثَمَّ لم أشأ أن أرفعه ، واكتفيت بالموقوف ، وإنْ كان جمهرة أهل العلم على الأخذ بالضعيف في مثل هذا المقام التهذيبيّ ، ولا سيما إن كان له من موقوف الصحابة ما يؤازره ، أمَّا بابُ العقيدةِ وبابُ الحلالِ والحرام فلا نأخذُ بالضعيف ؛ لأنَّ في ما فوقه غناءً أيَّ غَناءٍ .

وهذا نهجٌ في التقريرِ والتَّوطين والتفعيل في النّفسِ بيّنُ الفِحالةِ . وهو من باب العناية البالغة بالمعنَى مِنْ جهةٍ ، ومن يُقريه ذلك المعنَى من جهة أخرى . وتلك شِيمة صُنَّاع الجُود والإحسان .

وقول الشيخِ « وهذا ممَّا لم أقرأه في كلامِ مَنْ يُؤخذ عنهم العلمُ ، فخذْ ما تراه ودع ما لا تراه ، ولا حرج عليْك »

الذي قال الشيخ إنه لم يقرأ ليس هو الذهاب إلى الحقيقة لا المجاز ، فهذا نهج أهلِ السنةِ ، بل الاستدلالِ الذي أبداه الشيخ على نحو ما بيّنتُ .

وقوله : « فخذْ ما تراه ودع ما لا تراه ، ولا حرج عليْك » حثّ لِطالبِ العلمِ على أن لايتخذ موقفه إلا بناءَ على رؤيته ما يختارُ ، لا تقليدًا عن غيْر علمٍ بحقِيقةِ ما يَختارُ ، وهذا الحثُّ إذا ما أخذَ به طالبُ العلم كان حامِلاً له على أن يتفتِّشَ في ما بيْن يديْهِ وَيسبرَ غورَه ويُحيطَ بأبعادِه وموقعَ ذلك كلِّه مِن مُرادِ الله الشرعيّ ، ولا سيّما في بابِ العقيدةِ ، فإنّ الخطأ فيها من تهاونٍ أو غفلةٍ أو تعصبٍ مهلكة .

وفي هذا الحثِّ حملٌ إلى أن لا يستصغِرَ الطالبُ نفسَه ، فيسلمَها لشيخِه فيكونَ كما يقولُ بعضُ المُضلِّين من المبتدعة عن السّبيلِ السّواء : « كنْ بيْن يديْ شيْخِك كالميّتِ بيْن يدَي مغسّله »[1] فمثلُ هذا لا يخلقُ إلا شعبًا عقله في أذنيه . ومثله لا تقوم به حياة عزيزة .

---

(١) من المؤلم أن هذا الذي يقول لتلميذه أو مريده : « كن بيْن يدي شيخِكِ كالميّتِ بيْن يديْ مغسّله » هو لا يأخذ بذلك مع رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ، وهو الأولَى بذلك ، فليس أحد من البشر يسلم العاقلُ أمره إليه إسلامًا مطلقًا سِوى سيّدنا رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ .
أفيجعل أولئك المبتدعون حقهم على مريديهم فوق حق رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ عليْهم أنفسِهم . ==

وشيخُنا حفيّ بتأسيس شخصية المسلم ولا سيّما طالبُ الْعِلمِ علَى العزة والمنعة من الضّيمِ . وكذلك أعيان العلماء يفعلون .

أمّا قَوْله : «ولا حرج عليك» فإنّي أفهمه على أنّه هو أعزه الله تعالى لا يحرّج عليك أن تدع ما ذهب إلَيْه هو أيْ لاحرج عليك منّي ولا أَمنعك من أن تختار الذي تراه أنت الأعلى ، فلا سلطان لي عليك في الاختيار من بعدِ أن يتبيّن لك المذهب ومخارجه وأدلته .

ويبقَى بعدُ حكم الله تعالى فيك ، لا حكم العباد . فنفَي الحرجَ من جهته أعزّه الله تعالى أمَّا من جهة الله تعالى فأمرُه إلى الله سُبْحانَه وتَعالَى .

هو يقرّر فينا مبدأ حرية الاختيار المسؤول انطلاقًا من قول الله تعالى ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ (البلد:١٠) ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٥٦)

* * *

ومن هذا أيضًا ما تراه في تدبره قول رسول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسلّمَ « إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ وكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِى حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا» .

(مسلم : الإمارة)

يذهب الشيخ إلى أنّه على الحقيقة لا المجاز ، ويشيرُ إلى أنَّ من أهل العلم من رآه تمثِيلاً وتصويرًا ، فيقول :

== لو أنهم أسلموا أنفسَهم لهدي رسول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ لما قالوا لمريديهم الذي قالوا لأنه مخالفٌ لهديه ﷺ . ولقالوا لهم الذي قاله شيخنا المجد لنا : «خذْ ما تراه ودع ما لا تراه» .

« وإذا أخذنا بِظاهرِ الحديثِ ، وهو الأَوْلَى قُلنا : إنَّ الغائبَ الّذي هو شَأنُ الآخرةِ لا يُقاسُ علَى الشّاهدِ الذِي أَلفناه فِي الدُّنيا .

ولك أنْ تَقُولَ : إنَّ هذا مِن المَجازِ ، والمقصُودُ ليسَ ظاهرَ اللّفظِ ، وإنّما المقصُودُ المنزِلةُ الرَّفيعةُ والمقامُ المحمودُ لِهؤلاءِ المُقسِطين . . . . » [1]

يعرضُ الشيخ هنا على سمعك ما يذهبُ إليْه غيرُه وفاءً بحق الآخرِ في أنْ يُعرض رأيه ، ولا يُقصَى ، وإن لم تأخذ برأيه .

وهذا سنة بيانية للقرآن يَعرضُ علينا رأي المخالف ، ويُبينُ عمَّا فيه من ضلالةٍ وهذا تجدُه في السُّورة التي ترسُم مَعالم منهاج الدّعوة إلى الله : سُورة « النّحل » على نحو يلتفتُ إليْه كلُّ قارئ من شدَّةِ ظهورِ ذلك فيها . .

وقد عهدْنا هذه السّنةَ في منهاجِ التَّعليم في الأزهر الشريف رسالة وغاية ، فقد كانت تُعرضُ علينا مقالات أهل العلم في القضية في علم الفقه أو علم التَّوحيد وغيرهما على ما بينها من تخالفٍ ، ويُعرضُ دليلُ كلٍّ ، ثمَّ يعرضُ نقد أو نقضُ كلِّ دليل وما كان يُفرض على طالب العلم الأخذ برأيٍ ، فقد كان بعضُ من درّس لي « علم التوحيد » يَعرضُ مذهبَ أهل السُّنة ، ومذهب الأشاعرة ، ومذهب الماتريدية ، ومذهب المعتزلة في المسألة الواحدة وكان يقُولُ إنّه هو يأخذُ بمذهب المعتزلة ، وكان يجهر أمامنا بذلك ، بلْ كان يقول لنا لولا المعتزلة لارتد كثيرٌممن دخلوا في الإسلامِ من الأعاجم لقوة الشُّبهات العقلية الّتي كانت تثار في وجوههم ، وماتزال صُورته في عينيّ قائمًا أمام « السّبورة » يجهر بذلك ، وكان غيرُه من أقرانه يجهرُ بأنَّه على مذهب السّلف ، وأكثرهم كان على مذهب تلاميذ أبي الحسن الأشعري .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٤١٩/١ .

كلُّ ذلك تلقيناه في باكر طلب العلم ، ممَّا أكَّد فينا ـ طلاب العلم في الأزهر ـ أنَّ منهاج العلم أن يُستمع لكلِّ ذي رأي ودليله وأنْ يناقشَ فيه ، ثم يتركُ طالبُ العلم يأخذُ في حياته الخاصّة ما يقتنع به .

﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (المؤمنون:٥٣) ، (الروم:٣٢)

* * *

وممّا تراه سالكًا فيه مسلك التربية الخلقية في طلب العلم ، والوفاء ببعض حق العلم على من يطلبه ما تراه في تدبره ما رواه الإمام مسلم في كتاب « التوبة » من صحيحه بسنده عند عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :

« لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِى أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلَكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَنَامَ ، فَاسْتَيْقَظَ ، وَقَدْ ذَهَبَتْ ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ ، ثُمَّ قَالَ : « أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِى الَّذِى كُنْتُ فِيهِ ، فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ » فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ ، فَاسْتَيْقَظَ ، وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ ، وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ » .

ينظرُ في قول رسول الله ﷺ : « فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ ثُمَّ قَالَ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِى الَّذِى كُنْتُ فِيهِ » فيرى ما في استيقاظ الرجل وإدراكه ذهاب راحلته ، إعرابًا عنْ حال التائب الذي يستيقظ من غفلتِه ، فيجد دنياه وأخراه قد ذهبا ، يقول : أنا أفهمُ من هذا ، ولك أنْ تقرّ فَهمِي أو لا تقرّه أنه لم يدرك أنَّ الرّاحلة الّتي عليها زاده ومزاده فِي رحلتِه سَواء كانتْ الرحلة الحقِيقية المعروفةَ أو فِي رحلتِهِ الّتي هِي رحلةُ الحياةِ بِتقلباتِها لَمْ يُدركْ أنَّ الرّاحِلةَ ذَهبَتْ إلا لَمَّا اسْتيْقظَ ، وأنّه لَمَّا كان نائمًا كانَ لايدري .... [1]

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم . ٢/٧٤٤

أرأيت إلى شَيْخنا كيف يُعلن حق القارئ أيًّا كان مقامُه في طلبِ العلم في أنْ يتبصَّرَ ما قال شيْخُه ، وأنْ لا يبيعَ له عقلَه وذوقَه على الرّغم من ثقته في نُصح شيْخه وبذله جُهدَه في خدمة العلم وطلابِه على الرغم من ذلك كلِّه فللقارئ أنْ يذهبَ إلى غير ما ذهبَ إليْه الشّيْخُ .

وانظر كيف أنه دفع بهذه الجملة : « ولك أنْ تقرّ فَهمِي أو لا تقرّه» أولاً وأقامها مقام الاعتراض وهو من أقوى عوامل استنفار العقول وتوطيد المعاني وتأكيدِها وتوطينِها ، إعرابًا منه عن أمرين فيما أفهم :

الأول : أنّ ما سيأتِيك لم تعهدْ العقول سماعَه ، فتأنسَ إليْه ، ففيه شيْءٌ ممّا قد يستفزك ، للطافةٍ وطرافةٍ فيه .

والآخر : أن تفزع ممّا أنت فيه لتتلقّى ما هو سيأتيك ، فقدم العبارة لتقع في قلبك أولاً ، فتمنحها حقها ، فيكون لك منها ما أنت أجدر أن لا تحرمَه ، وليكون لها منك ما هو أحقُّ بأن لا تبخل به عليها من حسن النّظر والتأمل والمراجعة والتفتيش ، وكأنّي اسْتشعرُ أنَّ الشّيخَ يُريدُنا أن نتعلمَ كيف وفد هذا المعنى الذي فهمه على قلبِه ، ليكون لنا من هذا ما يجعلنا أهلا أن نسلكه حين نقرأ البيان العالي ، والبيان العليّ .

وهو بهذا ينتزعُ أيضًا مهابة مخالفتِه من قلوب طلابِ العلم ، فغيرُ قليلٍ منهم من يتهيبُ أن يذهب إلى غيرِ ما ذهب إليْه شيخُه ، وأن يعربَ عن ذلك ، فكان من إحسانه إلى طلابه أن يقيمهم مقامًا لا يحتقر فيه أحدهم نفسَه ، وأن يبذل ما قد يمن الله تعالى به عليه وإن كان قليلا .

« يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا ، وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ» . (متفق عليه : البخاري في كتاب الهبة ، وكتاب الأدب ، ومسلم في كتاب الزكاة) أي لا تحتقر أن تهدي لأخيك شيئًا وإن كان قليلاً ، فقِيمة الأشياء ليس بحجمها بل بما بعث على بذلها من المودة والتراحم ، فقليلٌ من نفس رضية محبة ،

يخرج العطاء منها قبل أن يصل إلى يد من أُعطِي خيرٌ من كثير وفير أُخرج عنوةً من نفس كزة تتبعه ولا تنساه .

حين يربّى طلاب العلم على هذا كيف يكون حالهم في غيرِ طلب العلم أتراهم يسحبون من آذانهم كما تسحب النعاج ، أتراهم يساقون إلى غير ما يسْترضون ، أتراهم يهتفون أنا عبد المأمور ، أيقالها عاقل ، كذلك يريد الطواغيت لنا ومنا أن يكون هذا شعارنا . (أنا عبد المأمور) وليس أحقر ممن يرضى أن يكون عبدًا للمأمور ، فكيف أنت مع الآمِر إذن ؟!

أرأيت كيف يربّي الطواغيت النَّاس ، وكيف يربّي الأعيان من العلماء وفي مقدمهم شيخنا أعزه الله تعالى النّاسَ عامة ، وطلاب العلم خاصة ؟

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (المائدة:١٠٠)

﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (هود:٢٤)

* * *

وممّا تراه من باب العنايةِ بتربيةِ طلاَّبِ العلم ، وهم أحقُّ مَن يُعنى العلماءُ بتربيتِهم ، لأنّهم إنْ صلحوا صلحَ كثيرٌ من أحوالِ الأمّة ، ما تراه في قولِه ، وهو يريدُ أن ينقلَ مقالةً للإمام النَّوويّ في التوبةِ : « وللإمامِ النّوويِّ كلامٌ مفيدٌ ومختصرٌ فِي « التّوبَة »، وقدْ أحسَنَ تَلْخيصَهُ ، والنّوويُّ يؤخذُ عَنْهُ ما اسْتخرجَهُ ، ومَا لَخّصَهُ مِنْ كلامِ شُيوخِ الإسلامِ الذينَ يؤخذُ عَنهمْ العلم ، كالقَاضِي عياض وابن عبدِ البرّ وغَيْرِهمْ مِنَ الْكَمَلَةِ رِضوانُ الله عَلَيْهِمْ ، وألْحقَنا بِهمْ كَرامَة نَفسٍ وقرّة عيْن .

وحيْنَ أنقلُ كلامَ هؤلاءِ فِي كتبِي أقصِدُ إِلَى أنْ يتعرّفَ الجيلُ علَى كلامهِمْ وفَضل بيانِهمْ ، وإلى أيِّ حَدٍّ تَخلّفنَا عَنْهُمْ ، ثُمَّ وَهُوَ مُهمٌّ أَيْضًا أنْ أُسْمعَ الجيلَ ألسِنةَ هؤلاءِ الكرامِ ، وهِيَ تُخاطبُهم حتّى تَكونَ ألسِنتُهُم وَأقلامُهم لا تزال ناطقةً فينا .

وكلّما قرأَ قارئٌ كلِمةً مُشرِقةً لِواحدٍ مِنْ هؤلاءِ الّذين هُمْ وَرثَةُ النّبُوّة رفَعَ الله بِها هذَا العالمَ درجةً ، ورفعَ القارئَ بِها درجةً ، ولا حرجَ علَى فضلِ اللهِ .

ولَو قلتُ لك : إنّي أدخلُ السّرورَ علَى قلبِ قُراء كتابِي بِنُصوصِ هؤلاء لأصبت»[1]

هذا الّذي سمعتَ مِن شَيخنا يقُوم فيه من كريمِ التَّربيةِ لنا طلابَ العلم ما أفتقرُ إلى أن أشير إلى ما توافد منه على قلبِي ، ويقُوم فيه ما يُبرزُ لك عظيم محبَّة الشّيخ طلابَ العلم ، ووَافر رَغبته في أنْ يبذلَ لَهم الخيرَ ما استطاعَ إلى ذلك سبيلا :

قوله : « وللإمامِ النّوويِّ كلامٌ مفيدٌ ومختصرٌ فِي « التّوبَة » ، وقدْ أحسَنَ تَلْخيصَهُ « يهدِي إلى أنّ كلام النَّووي المفيد لم يكن فيه مفتقرًا إلى أن يبسط العبارة ليحقق الإفادة ، بل كانتْ له ملكة في أن يقيم لك جليلِ الفوائد في عبارة وجيزة ، فيكون عطاؤه ممّا سهل سمعُه وحفظه ، وتكاثر مكنوزُه ، فيكون لك خيرُ زادٍ ، خفة حِمل ، ووفرة عطاءٍ ، ولعلَّ ذلك من بركة اصطحابه بيان النبوة واصطبارِه على حُسنِ الأدب معه فهمًا وتخلقًا ، ومن هدي النّبوّة الإحسان إلى الصَّاحب فمن صَحب بيان الّنبوّة كان له من ذلك مزيدٌ من إحسان هذا البيانِ إليْه . فنِعِمّا هو .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢/٧٣٦

وكأنَّ الشَّيْخَ يقولُ لي ـ وكأنّي عصيته عجزًا لا سوءَ أدب ـ لا تجعلَ عبارتك أوسعَ من كريمِ فوائدِك ، بلْ لا تجعلها عديلها ، لِتكنزْ في وَجيز العبارة عزيرَ الإفادة .

غيرُ قليلٍ منا ، وأنا ـ إقرارًا بواقعٍ ـ في المقدمةِ مِن ذلك نَحسِبُ جهالة أو عجزًا أنّا لنْ نوفِّي الإفَادةَ حقّها إلا إذا بَسطْنا وثرْثَرْنا وشقّقنا وتفيهقنا .

وقوله أكرمه الله تعالى : « والنّوويُّ يؤخذُ عَنْهُ ما اسْتخرجَهُ ، ومَا لَخّصَهُ مِنْ كلامِ شُيوخِ الإسلامِ » يهدِي إلى أنَّ النَّوويَّ بمنزلةٍ لا يؤخذُ عنه ما حمله عَن غيرِه فحسبُ بلْ يؤخذ عنه ما اسْتخرجه ، فهو لا يقُومُ مقامَ الحمَّال الحافظ ، المؤتمَن ، بل يتجاوزُ ذلك إلى أنْ يسْتخرجَ بنفسِه مِن العلم ما لم يسْتخرجْه سلفُه ، وفي قوله : « اسْتخرجه » إشارة كريمة إلى أن ما يأتيك به النَّوويّ إنّما هو مكنونٌ في رَحم العلم ، ولم يُمارس النّوويُّ الإسقاطَ والتقولَ ، إنّما هُو المستولِدُ مِن العلمِ علمًا . فثقتك بولائدِه تكونُ من جنس ثقتِك بما اسْتَوْلدَ منه .

وقوله : « وحيْنَ أنقلُ كلامَ هؤلاءِ فِي كتبِي أقصِدُ إلَى أنْ يتعرّفَ الجيلُ علَى كلامهِمْ وفَضل بيانِهمْ ، وإلى أيِّ حَدٍّ تَخلّفنَا عَنْهُمْ ، ثُمَّ وَهُوَ مُهمٌّ أَيْضًا أنْ أُسْمعَ الجيلَ ألسِنةَ هؤلاءِ الكرامِ ، وهِيَ تُخاطبُهم حتّى تَكونَ ألسِنتُهم وَأقلامُهم لا نزال ناطقةً فينا » يصور لك شيئًا من عظيم محبته الخيرَ لطلابِه ، وكيف أنّه الرَّغوب في أن يتخذوا أمثال أولئك الأعيانِ قدوة وأسوةً ، ، فهُم الأحقُّ بذلك ،

وهو يريد لمسامعنا وافئدتنا أنْ تكونَ مسكنًا لبيان أولئك ، حتَّى لا تكونَ فارغة لسُكنَى ساقطِ القولِ وعقيمِه ممَّا يحاصرُنا في كلِّ مكانٍ طَوعًا وكُرهًا ، فليس أشقَّ على المرْءِ مِن أنْ يُبتلى بسماع ما يُجبُ عليه ـ إن كان حرًّا ـ أن يسدّ مسامِعَه ، ويستغشي ثيابه ، حذرا مِن أنْ يلامسَ سمعَه ممّا أنّه يُصدئُ القلبَ ويُعميه ، ويَطمسُ البصيرةَ ، ويكدّ القريحةَ . كما يقول القاضِي الجُرجانيّ في وساطتِه .

وإذا ما كان السّمعُ من جليل نِعم الله سُبْحانَه وَبِحمدِه ، فشكر هذه النّعمة أن تُحفظَ ممَّا يلحق بها الأذَى ، وأن تُطعمَ ما يزيدُها فضلاً ونفعًا .

وقوله ـ أعزَّه الله تعالى : « وكلّما قرأَ قارئٌ كلِمةً مُشرِقةً لِواحدٍ مِنْ هؤلاءِ الّذين هُمْ وَرثَةُ النّبُوّة رفَعَ الله بِها هذَا العالمَ درجةً ، ورفعَ القارئَ بِها درجةً ، ولا حرجَ علَى فضلِ اللهِ ». ممَّا يؤدّبني بأنْ قراءتي كلام الأعيانِ والانتفاع بِه ممّا يزيدُ في منزلتهم عند ربّهم ، لأنَّه من الثلاثة التي لا ينقطع نفعُه بعد موت صَانعُه ، كما هدتْ السّنة النبويّة ، فمَن أحبَّ عالمًا كان الحريصَ على أن يقرأ علمَه ليكونَ لذلِك المحبوبِ مِن المثوبةِ ما يكُونُ شُكرًا من القارئ له ، فكيف إذا ما اجتمعَ إلى ذلك ما ينالُه القارئُ من المنفعةِ ومِن المَثوبةِ الأخرويّةِ .

وفي هذا حثٌّ لنا طلابَ العلم أن نجتهدَ ليكونَ لِنَا من العلم ما ينفعُنا بعد رحيلنا ، كلّما قرأ أحدٌ هذا العلم وانتفعَ بِه . فيكونُ ذلك العلم جامعًا بيْن الثلاثة الباقي نفعُها بعد الرَّحيل : يكون صدقة جاريةً ، وليس أجلّ نفعًا من صدقة العلمِ ، ويكون القارئ كالولد الصالح لك يسْتغفر لك ، فهُو وإنْ لم يكنْ ولدَك من صُلبك ، فإنّه ولدُك من عقلك ، وولدُك من عقلك أنفَعُ لك من ولدِك من صلبِك ، ولذا كان مِيراثه منك علمَك ، بينا ولدُك مِن صلبِك مِيراثُه منك الدّرهمُ والدينارُ اللذان رُبّما أفسدا أمره ، ولا يُصلحانه ، إلامن رحم ربك سُبْحانَه وَبِحمدِه .

كلُّ ذلك يتوافدُ إلى قلبي حين قرأتُ مقالةَ الشَّيخِ ، فكنتُ كأني أسمعُه يحدّثني بذلك .

وقوله : « ولَو قلتُ لك : إنّي أدخلُ السّرورَ علَى قلبِ قُراء كتابِي بِنُصوصِ هؤلاء لأصبت» لا مزيدَ عليْه في تصويرِ عظيمِ من يَعتلج في صدرِ شيْخنا مِن محبتِه لنا ، كيف تكونُ إزاءَ شيخٍ كمثلِه ، يحبُّ أن يدخلَ السّرورَ على قلبك .؟

أليس مِن حقّ بره أن نسعَى إلى أَن نكونَ حيثُ يُحبُّ لنا أن نكونَ رجالاً يصنعونَ المَجد ويحمونَه احتسابًا . وألا يستنعجنا الطُّغاةُ الجبابرةُ بما في أيديهم من قوةٍ غشومٍ وأن لا نخشَى على دنْيانا وما وقع في أيدينا من لُعاعتها أكثر من خشيتِنا على دِيننا فلا نجهرُ بالحقّ في سمْعِ الطواغيتِ وبصرهم[1].

هذا أقلُّ ما يجبُ له علينا ، وأخشى إذا لم نفعلْ أن يخاصمنا يوم القيامة ، ولكني أكادُ أوقنُ أنّه من حبه لنا طلاّبُ العلم يقومُ فينا مقام أبي ضمضم في قومه يتصدق علينا بتقصيرنا في الوفاء بحقّه[2]

* * *

ومن مَعالمِ البُعد التَّربويّ في شرحه ما نراه من عنايتِهِ بحالِ الرَّواي في كلامِه ، يتبصّره ، فيستنبط منه معانِيَ لطيفة تُعين على حُسن تربيتِنا .

من ذلِك ما جاء في ما رواه مسلم في كتابِ (الإمارة) من حديثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شُمَاسَةَ قَالَ : أَتَيْتُ عَائِشَةَ أَسْأَلُهَا عَنْ شَيْءٍ ، فَقَالَتْ : مِمَّنْ أَنْتَ؟

---

(١) روى أحمد في مسندِهِ بِسَنَدِه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ « إِذَا رَأَيْتُمْ أُمَّتِى تَهَابُ الْظَالِمَ أَنْ تَقُولَ لَهُ إِنَّكَ أَنْتَ ظَالِمٌ فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنْهُمْ». (صححه أحمد شاكر ، وقررأنّ محمد بن مسلم أبا الزبير قد لقي ابن عمرو ، وليس كما قيل إنه لم يلقه . ينظر مسند أحمد ، تحقيق أحمد محمد شاكر . ط(١) دار الحديث بالقاهرة ، حديث رقم (٦٥٢١)

في قوله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعلَى آلِهِ وَصَحبِهِ : (تودع منهم) ممّا تنخلع منه قلوب العقلاء ، لما فيه من الإعراب عن فقد الأمل فيهم ، وأنهم صاروا إلى حال لا يرجى صلاحه ، ومن كان كان إلى سوء العُقبَى التي تَرْجُفُ منها القلوب .

(٢) ينظر سنن أبي داود كتاب «الأدب» أو البيهقي في شعب الإيمان (حديث رقم : ٧٧٢٧) ٤١٨/١٠ ، وعمل اليوم والليلة لابن السني حديث رقم (٦٥) ص : ٦٠

فَقُلْتُ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ . فَقَالَتْ : كَيْفَ كَانَ صَاحِبُكُمْ لَكُمْ فِى غَزَاتِكُمْ هَذِهِ؟ فَقَالَ : مَا نَقَمْنَا مِنْهُ شَيْئًا . إِنْ كَانَ لَيَمُوتُ لِلرَّجُلِ مِنَّا الْبَعِيرُ ، فَيُعْطِيهِ الْبَعِيرَ ، وَالْعَبْدُ ، فَيُعْطِيهِ الْعَبْدَ ، وَيَحْتَاجُ إِلَى النَّفَقَةِ ، فَيُعْطِيهِ النَّفَقَةَ . فَقَالَتْ : أَمَا إِنَّهُ لاَ يَمْنَعُنِى الَّذِى فَعَلَ فِى مُحَمَّدِ بْنِ أَبِى بَكْرٍ أَخِى أَنْ أُخْبِرَكَ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِى بَيْتِى هَذَا :

« اللَّهُمَّ مَنْ وَلِىَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِى شَيْئًا ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ . وَمَنْ وَلِىَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِى شَيْئًا ، فَرَفَقَ بِهِمْ ، فَارْفُقْ بِهِ ».

لهذا الحديثِ علاقةٌ وثيقة بالواقعِ المُحيطِ بالشَّيخِ وقومِه ووطنِه وأمتِه المُسلِمة ، فيه مِنْ معانِي الهُدَى المُتعلِّقة بحالِ الوالِي بِرَعِيَّتِهِ ، وموقفنا ممن يعدِل في أمرٍ ما وبيْننا خُصُومة في أمرٍ آخر ، كيف يكون الأدب موقفًا وبيانا .

يصوّر لنا الشَّيْخُ العَلاقة بيْن أمّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنها ، وراوِي الحديث : عبد الرحمن بن شُماسة رضيَ الله عنه وهو الّذي شارك في الجيشِ الّذي قتلَ أخاها : « محمد بن أبي بكر الصّديق » رضي الله عنهم ، وموقفها من الوالِي « معاوية بن خديج النّجيبيّ » الذي كان على رأس الجيشِ الذي قتل أخاها . فتبصّر الشّيخُ هذه العلاقة وما يكونُ لها مِن حُضُورٍ في نفسِ كلّ ، وما لها من أثرٍ في منهج الفِعل والقَولِ .

كلُّ ذلك ليعلمنا كيف يكون المُسلم ، وكيف لا تحملُه الخصُومة في أمرِ ما مع آخرعلى أن يجاوزَ الحقّ والعدل ، وكيف أنَّه يكبح زمامَ ما يعتلج في صدرِه من الألم ، فلا ينزله من فوقِ صَهوةِ الحقّ والعدلِ والأدبِ في الفعلِ والقول .

وكلّ ذلك هو الَّذي اغتالته أفاعيل ثلَّةٍ من العلمانيين والليبراليين وحيل سحرة إبليس ومكرُ السّياسيين عبدةُ المنصِب والسّلطة من أخلاق النّاسِ فِي زماننا ، فغرقُوا في مستنقعِ استفحال الخُصومَةِ على أمرٍ من أمورِ الدُّنيا .

جعل الشَّيْخ لبيانِ «ابن شُماسة» ولبيان أمُّ المؤمنين عائشةُ رضِي الله عنها من الاعتناء بتحليلِه وتذوُّقه واسْتنْباطِ ما فيهِ مِن جليلِ القِيمِ التَّربويّة السّلوكية وكريمها ما يليقُ به .

والشّيخُ يستهلُّ بيانَه بقولِه : «هذا الحديثُ عامرٌ بالمعانِي الجليلةِ ، والّتي يتعيّنُ عَلينا أنْ نُنَبهَ الأمّةَ إليْها ، وهَذِهِ الْمعانِي ليْسَتْ فِي متنِ كلامِ رسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ ، وإنّما فِي سِياقِ الخَبرِ»[1]

هذا من الشيخِ لفتٌ لنا ـ طلاب العلم ـ إلى أن لا نرغبَ عن ما يُحيط ببيان رسُولِ الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ من بيان الصّحابة ، رضيَ الله عَنهم ، ففي بيانهم من المعاني ما لا يرغبُ عنها أو يتشاغلُ عنها إلا غابن نفسَه

يُصوّر الشَّيْخُ لنا حال «ابن شُماسة». وهو حالٌ لو كان لأحدِنا نزيرٌ مِنْهُ لآثر أن لا يحومَ حول محلّ أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنها فضلاً عَنْ أنْ يذهبَ إلَيْها يسألُها عن شيْء بنفسِه على أقل تقديرٍ .

سيدُنا ابن شُماسة لم يجْعل ما كان منه مِن مشاركة في الجيشِ الذي قتل أخا أمّ المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنها مانعًا له عن الذهابِ إليها لا لأنّه حسب أنها لا تعلم اشتراكه أوْ حِسب أنها نسيت ما كان ، بلْ ثقةً في عظيم عقلها وعلمها وأدبها رَضِيَ اللهُ عَنها،فكان موقفه هذا آية بينة جليلة على معرفته بأمّ المؤمنين، وأنّ ما كان منه بشأنِ أخيها غير مُحاجزها عن الوفاءِ بحقِّه فِي حُسن لقياه وخِطابِهِ .

هذا شأنٌ إذا ما أُقيم فِي حياةِ الأمَّة تمكَّنَ في ما بيْنها السَّلامُ الاجتماعيّ الّذي يجعلُ من قلوبِ النَّاسِ فُسطاطًا للأمنِ النَّفسيّ ، وهو شَطرُ ما يَفتقِرُ إليه الإنسانُ كلّ الإنسانِ .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/٤٣٠

الشيخُ يتبصَّرُ حالَ سيدنا «ابن شُماسة» رَضِيَ اللهُ عَنه ومقالَه وموقفَ أمّ المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنها ، فيستنبطُ من ذلِك قيمًا أخلاقيَّةً عليّة .

ويستنبِطُ قدرتَهم على مُحاجزةِ الخلافِ السِّياسيّ عن استبقاءِ حقوقِ الأخوَّةِ الإسلاميّة ، والإنسانيّة .

ويستنبطُ كيف أنَّ الواقعَ النَّفسيّ المُؤلمَ لسيّدتنا أمِّ المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنها لم يمنعْه من أن تُحدّث بِحديثٍ سمعته من رسُول الله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ يفتح معناها باب البشارة لِقائدٍ قتل جيشه أخاها .

ويَستنبطُ مِن سُؤال سيّدتنا أمّ المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنها لابن شُماسة «رَضِيَ اللهُ عَنه وصِياغته : (كَيْفَ كَانَ صَاحِبُكُمْ لَكُمْ فِى غَزَاتِكُمْ هَذِهِ) كيف أنّها كانت مهمومة بالأمرِ العامّ، وبعلاقةِ الأميرِ برعيّتِه في موقفٍ كان مِن آثارِه قتلُ أخيها . لَم تَقلْ له : لِم قتلتم أخي أو من الّذي باشر قتله ، أو كيف قتلتموه؟ إلى آخر ما يُمكنُ أن يُبادرَ أمثالُنا إلى السُّؤال عنه ، لكنَّها أمُّ المؤمنين زوجُ رسُول الله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ .

يتلبث الشَّيخُ عند إعراب أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنها بقولها (صاحبكم) ولم تقل : أميركم ، وقولها (لكم) ثُمّ في (غزاتكم) كلّ هذا الكلم تحملُ في اصطفائها تصويراً لِما هو قائمٌ في صدرِأمّ المؤمنين من الأدبِ واستحضار أنّها أمٌ المؤمنين زوج رسول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ .

وهذا يؤدِّبنا أن لا نَنْسى في سياق ما يعتمِلُ فِي صدورِنا مِن الأسَى والألمِ موقعَنا الاجتماعيّ والعِلميّ .

وكَمْ مِنْ عالمٍ وإمامٍ في النّاسِ يغفُلُ في بعضِ المواقع حقّ ذلك عليْه ، فيتعاملُ مع الآخرين بما يستحقّون ، ولا يتعامل معهم بما يليق به هو عالمًا يحملُ كتاب الله سُبْحانَه وَتَعالَى في صدره ، أو إمامًا يحملُ بلسان حالِه قبلَ لسانِ مقالهِ النَّاس إلى بابِ ربهم جلّ جلاله .

ومنطقُ العقل الفطري والعلمي المسلم قاضٍ بأنْ نعامِل النَّاس بما يليقُ بِنا ، ولا نعاملهم البتة بما يليقُ بهم مُجترئين على معصِية الله تعالى في عبادِه . فمَن لم يفعلْ فعامل الناس بما يليقُ بِهم ، لا به فقد حامَ حَول حِمَى الكفران بنعمة الله تعالى عليْه ، فإنعامُ الله سُبْحانَه وَتَعالَى عليه بالعلم أو الإمامة يستوجبُ شكرَها ، ومِن شكرِها وحقّها عليْهِ التَّصرُّفُ مَع الآخرين بِما يليقُ بهذِه النّعمةِ وبما يليقُ بجلالِ مَنْ أنعمَ بِها عَلَيْه تفضّلا . .

كلُّ ذلك وكثيرٌ غيرُه ممّا غام عنّي يُستنبط من موقفِ سيدتنا الجليلة أمّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنها ، ممَّا يكشفُ لك عن عظيم قدرِها ، واستحقاقِها أن تكونَ الأقربَ إلى قلبِ سيدنا رسُول الله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ .

* * *

الشَّيخُ يسلك في نظره إلى القضايا مسالك مغايرةِ لما يسلكه الآخرون ، ظاهرها أنه يسلك من جهةِ بلاغةِ البيان ، ولكنه فيما أفهم يتخذ البيان مطيته إلى أن يلج القضيةَ أو المسألة ، لم يكن منتهى سفر الشَّيخ في أي قضية الاكتفاء بالنَّظر في صور المعاني ، فلا يعشقُ المرآة إلا المفتونات بحسنهن . الرّجالُ لايفعلون ، الرّجالُ مشغُولون بحقائق الأشياءِ لا بصورِها . وهُم لما فِيهم مِن فراسةٍ ينفذون مِن الصُّورة إلى الحقيقةِ ، فاشتغالُهم بالصُّورة علَى مقدار إعانتِه إلى بلوغِ الحقيقةِ ، والشَّأنُ في الصّورة في البيان الحَقّ والصِّدقِ أنْ تكونَ مجلّى الحقيقةِ[1] .

---

(١) لما كان عالمُ البيان وعالم الإنسان على تلاحظٍ وكان في عالم الإنسان من يقُولُ ما لا يفعل ، نعى القرآن على أولئك ، وهددهم : ﴿ **كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ** ﴾ (الصف:٣) ==

ومخرجُ هذا في سَنن الرِّجال وخلقهم ما رواه مسلم في كتاب (البر والصلة) بسنده عن أبي هُرَيْرَةَ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » .

لا يُفهمنَّ مِن قوله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ ... ». أنَّ الله سُبْحانَه وَتَعالَى يدفعُنا عن أن نُحسِّن صورنا إذا ما أحسنا أفعالنا ﴿ **يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ** ﴾ (الأعراف:٣١) والأرض كلها جعلت لنا مسْجدًا (اسم مكان) ، وحال المُسلم كلّها سجود (مسَجد : اسم مصدر) والله جميل يُحب الجمال ، ولكنَّه ليس جمالُ خضراءِ الدّمن .

الجمال الذي يُحبه الله تعالى هو الجمالُ المتولّدُ من جلالِ الحقّ والخيرِ . فهذه الثلاثة : « الحقّ » و« الخيرُ » و« الجمال » متقارنات ، إلا أن الجمالَ وليد الحق والخير ، ولا يكون حقٌّ وخيرٌ ، ولا يكون مجلاه ومشْهدُه جمالاً ، فإنْ كان جمالٌ غيرُ متولدٍ من حق ، فهو الجمالُ الزَّائفُ أو ما يعرفُ بجمالِ خضراءِ الدّمن .

قلت : إنَّ الشَّيخَ يَفضُلُ كثيرًا من علماءِ البلاغةِ في عصرِه أنّه الرغُوب في أن يدخلَ إلى بعضِ القضايا دخولاً يجعلك كالمفاجَئ بما يأتيك منه . وكأنّه يركب متن « خرق أفق الانتظار » الذي تعلمه من دقيقِ نظرِه في صنيع عبد القاهرِ وبيانه ، ولا سيّما في كتاب « أسرار البلاغة » فعبد القاهر حفيّ بِهذه المهارة .

والذي أفهمه أنَّ من أقوى عواملِ التَّفاضلِ بين العلماءِ الذين يَتَوارَدُون على

== وكلمة « كبر مقتًا عند الله » مما تنخلع له قلوب أولو الألباب ، وكان في عالمِ الإنسان أيضًا مَن صورتُه نقيضَ حقيقته . كان ذلك أيضًا في عالم البيان : بيان سَحرة إبليس . تجد بيانهم هو خضراءُ الدّمن .

قضيةٍ أو مسألةٍ ، أَو «نصٍّ» علمي أوْ بيانيّ حُسنَ اصطفاءِ العالِمِ الجِهةَ التي يَدخلُ منها إلى القضيةِ أوْ المسألةِ أو «النّصِّ» .

هذا المدخلُ هُو الذي يَحاجزُ العالمَ مِن أن تقعَ قدمُه علَى ما وقعَت عليه قدمُ غيرِه في الطّريقِ إلى تَثويرِ ما فِي القضِية أو المسألة أو «النصّ» .

وهذا ما يستوجبُ على طالبِ العلمِ أن يجتهدَ في تعلُّمه ، وفِي أن يَتيقن أنَّه لم يدخلْ إلى القضيةِ أو المَسألةِ مِن حيثُ دخلَ الآخرون ، وإلا فإنّه لا محالةَ سائرٌ على وقع أقدامهم ، ولن يكونّ له من الأمرِ شيْءٌ يحملُ عنه .

وهذه المهارةُ تحتاجُ إلى مثابرةٍ ومصابرةٍ في تتبُّع صنيع العلماء ، ولا يُعنيك على هذا كمثلِ أن تجمعَ مقالات الأئمة في قضيةٍ أو مسألة واحدة ، لا لتقول لنا ماذا قال فلان وماذا رَدَّ بِه عليه فلان . بل لتنظر في مقالة العالم ثم تحاول أنْ تبصر مدخله إليها ، ثم تناظره بصنيع الآخر .

ولو زدتَ على ذلك فبيَّنت لنا دوافع كلّ عالم إلى مدخلِه سواء كانت دوافعَ ذاتيَّةً أو موضوعيَّةً ، وهبيّة أوكسبيّة كنْتَ قد زدتَ في العطيّة .

ولو أنك مثلا أخذت مسألة قامتْ فيها محاورة «أبي بكر الجصاصّ» (ت:٣٧٠هـ) للآخرين ، وحرصتَ على أن تبصرَ بواعثَ الاختلاف في الفهم والاستنباط ، لتبين لك أنَّ الأمرَ ليس مرجعُه في غالبِ الأمرِ إلى أنَّ هذا يستشهدُ بنصّ لا يعتدُّ به الآخر ، بل يرجعُ إلى مدخلِ كلٍّ إلى فهم النّصّ الواحد المتفق على الاستدلالِ به .

هذه المهارةُ من أنفع المهارات في طلب العلم الذي ينتهي بصاحبِها إلى أن يكون يومًا ممن يصغى إليه ، ويؤخذ منه ويردّ عليْه .

هذا ـ فيما أحسِبُ ـ هُو مِنْ أقوى عوامل التَّفاضل بيْن العلماء في فقه المسألة الواحدة من مسائل العلم . ولو أننا تعلمنا ثم علَّمنا طلابنا مناهج العلماء في الدخول في القضية أو المسألة لكنا أكثر رعاية لأنفسنا ، وأقدر على

أن نصنع من أنفسِنا ومن طلابنا من هو الجدير بأن يُصغى إليه فكرًا وتعبيرًا ، وأن يؤخذَ منه ويردّ عليه ، فذلك شعارُ أهلِ العلمِ وطلبتِه ، أمّا غيرهم فإنّه يرد عليهم ، ولا يؤخذ منهم ، بل ولا يؤخذ عنهم .

* * *

ومن معالمِ البُعدِ التَّربويّ في قراءته أحاديثَ من صَحيحِ مسلمٍ احتفاؤه بحثّ طلابِ العلمِ وإغرائهم بأن لا يحتقرنَّ أحدُهم نفسَه ، فيرى أنّ مثله ليس بأهلٍ إن اتَّخذَ الأسباب وأُتقن توظيفها لن يأتي بما يؤخذ عنه ويُحملُ منه ، فتراه يحثنا ـ نحن طلاب العلم ـ على أن نُعيد النَّظر فيما جاءنا عن أعيان أجدادنا من صَحيحِ العلم ودقِيقِه ، فلعلنا نستثمره ، فنستخرج منه ما لم يكن قبلُ .

تراه وهو يبين لنا عن معالم بناءِ المعاني ، وتآخيها ، وتلاحظها في حديث (تضمّن الله لمن خرج في سبيله ...) يبين لنا أنّ أول جملةٍ فيه هي أصل المعنى ، وأنَّ مقطع الحديثِ هو مِنْ ثمرة هذه الجملة ، وأنَّ هذا من باب « ردّ العجزِ على الصّدرِ » وأن هذا وجهٌ آخر من وجوه هذا الأسلوب ، يُمكن أن يُضافَ إلى الصُّورِ التي ذكرها البلاغيون .

ومن غيرِ المعقولِ أن نعتقدَ أن أوائلنا قالوا كلّ شيْءٍ ، وأنهم لَم يُبقوا لنا شيئًا نقولُه ، وهذا كلامٌ جيدٌ للذين يريدون أن يناموا ، أمَّا المشتغلونَ بالعلمِ ، فإنّهم يعلمون أنّ كلّ علمٍ تكلّمَ فِيه أوائِلُنا فِيهِ بَقِايَا أكثرَ ممّا قالوا ، وأنَّ كلّ مسألةٍ تكلّموا فِيها فِيها زوايا أَغفلوها . وَيبدو أنَّ بَعضنا نقلَ ما يوصَف بِه الكتابُ العزيزُ ، وأنَّ الله سُبحانه وتعَالَى ما فرّط فِيه مِن شيْءٍ من العلومِ ، وأَنَّ أوائلنا فِي النّحوِ والفقهِ والبلاغةِ وغيرِها ما فرطوا فِي هذا كلّه مِن شيءٍ ، وهذا حديث خرافةٍ[1] .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٣٢٦/١ .

مخرج هذا أمران :

الأول أنّ من زعم أن الأوّل لم يدع للآخر شيئًا كأنّه يحومُ حول «سوء الظنّ بالله» ، فالله سُبحانه وتعالى لا يحرم أحدًا من عباده تهيأ لأن يكون محلاً لعطائه . ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَـٰؤُلَآءِ وَهَـٰؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (الإسراء:٢٠)

والآخر : ما رواه الشيخان من حديث أَبِى هُرَيْرَةَ ـ رضى الله عنه ـ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ :« يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا ، وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ». (البخاري : كتاب الهبة ، وكتاب الأدب ، ومسلم كتاب الزكاة)

هذا الحديث هادٍ إلى أن لا يستحقر المرء ما عنده ممّا ينفع الناسَ ، فيمتنع عن العطية لهم إذا لم تكن عظيمة ، فلو أنَّ الناس سلكوا ذلك لما رأيت كثيرا يجود ، فالمرء مرغَّبٌ في أن يبذل مافي يده أيًّا كان ، فيكون المجتمع معطيًا ومعطَى ، فيتحقق التكافل والتآخي . .

طالبُ العلم عليْه أن لا يستحقرَ ما عنده من العلم ، ومن العقلِ والفهم ، فقد يُجري الله تعالى في قلبِه وعلى لسانه من الفهم ما لم يُجرِه على لسان أشياخه ، على نحو ما كان من سيّدنا عبدِ الله بن عمر بن الخطاب رضيَ الله عنهما حين استحيى من أن يقول ما أجراه الله تعالى في قلبه من العلم في صحبة الأشياخ .

روى البخاري في كتاب (العلم) من صَحيحه بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا ، وَهِىَ مَثَلُ الْمُسْلِمِ ، حَدِّثُونِى مَا هِىَ». فَوَقَعَ النَّاسُ فِى شَجَرِ الْبَادِيَةِ ، وَوَقَعَ فِى نَفْسِى أَنَّهَا النَّخْلَةُ . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ فَاسْتَحْيَيْتُ.فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَخْبِرْنَا بِهَا.فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « هِىَ النَّخْلَةُ» .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ فَحَدَّثْتُ أَبِى بِمَا وَقَعَ فِى نَفْسِى فَقَالَ لأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَىَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِى كَذَا وَكَذَا . .

تبصر موقف سيدنا عمر رضي الله عنه ، وكيف أنه يغري ولده بأن يكون الفقه والعلم أحب إليه من الدنيا وما فيه . وهذا يهدينا إلى أن تكون رغبتنا في أن يكون أبناؤنا رجال علم وعمل صالح ومنصبٍ في الدعوة إلى الله تعالى بلسان الحال ولسان المقال أحب إلينا أن يكونوا رجالَ أموال ومناصب ومصائب

* * *

ومن ذلك ما تراه في مَعرض بيانِه ما بيْن بيانِ النّبوّة وبيان الله سُبْحانَه وَتَعالَى من علاقة تظهر حينًا ، وتخفَى حينًا ، وما يكونُ منه حين تتلبس العلاقة بالخفاءِ يقُول :

« علاقةِ كلامِ سّيدنا رسول الله ﷺ بـ« الكتاب » الذي أنزلَه الله تعالى على قلبِهِ أراها تظْهرُ وتختفِي ، فَإذا خفيتْ ولَحظتُها مِن بعيدٍ تلحُّ عليّ نفسِي أن أشيرَ إليْها ، وتقُولُ لِي : لو احتَمَلَتِ الخطأ مرّاتٍ ، فلعلّها تحتملُ الصوابَ مرّةً أولَعلّها تنبّه مَن يسْتطيعُ أن يجدَ لها منزَعًا فِي « الكتاب » غير الذي وجدتَ . »[1]

مقالةُ الشّيخ هنا ليْست خبرًا أجردَ ، بل هي نورٌ يبسطُه بيْن أيدينا لنتعلمَ منه أن نجتهدَ في تبيين ما يخفَى ، فإذا ما استفرغْنا جُهدَنا وحيطتَنا في التَّبيين ، ولم يكنْ على الوجهِ الَّذي تطمئنُّ إليه النَّفسُ وتسكنُ ، ولم يكنْ في طوقِنا أفضلَ منه ، فلا نطوِي ما في أيدينا متهيّبين أن نعرضَه على النّاسِ ، بل نعرضُه لا ليحملوه عنَّا حقيقةً علميّةً ، بلْ لينْظروا فيه ، لعلّ فيهم من يتفضّل الله تعالى

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٦٢٣/٢ .

عليْه ، فيبصرُ ما فيه من عوج أو خطأ ، فيسدّدُ ويقاربُ ، ولعلّ فيهم من يضيئ له ما فيها من خطإٍ طريقًا إلى استدراك الصّواب . فربّ خطإٍ هدَى إلى صوابِ خيرٌ من صوابِ أوقعَ في خطإٍ .

وَهذا من الشَّيخِ نفثة في صدورِ طلابِ العلم أن يدركوا أنَّهم لن يكونوا دائمًا على جادة الصَّواب الصَّفاء ، وعلى متن الحقيقةِ النَّقاءِ ، فكلّ خلا المعصُومَ ﷺ يؤخذُ منه ويردّ عليه ، ويصيبُ ويخطِئُ . وحين يقُومُ ذلك في قلبِ طالبِ العلم ، يكونُ فرحُه بمن يقوِّم خطأه عديلَ فرحِه بمن يَحملُ عنه صوابَه أو أكثر ، فَلا يُعنى بتبصّرِ بواعثِ دَلالة الآخرين له على خطئِه ، فيصرفَه ذلك على أن يُفيدَ منهم ، بل عليْه أن يصرفَ قلبَه إلى ما في دلالتهم له على ما في صنيعه من الخطإ من الخيرِ له ، فالكلمةُ الحكمة ضّالة المؤمن هو أحق بها حيث وجدها ، كما هدى إلى ذلك بيان النّبوّة . كذلك يصنعُ الشيخُ طلاب العلم ..[1]

* * *

ومن معالم البُعدِ التّربويّ في قراءتِه أحاديثَ من صَحيحِ مسلم لفتُنا إلى أن لا نفتن بقدرة العقلِ مهما بلغت فتوتُه في التَّلقّي والتحصيل والتدسّس والفهم ، فإنّه برغم كلّ ما قد يتحقق له مِن الفُتُوةِ والفحولَةِ فِي هذا فإنّ له حدًّا يَجبُ ألا

---

(١) بعضُ طلابِ العلم يضِيقُ صدرُه حين يدلّه قرينه بلْ شيخه على ما في مقالِه من مجاوزة ، فيتوهم أن ذلك ما كان منه إلا تنقصًا منه ، واستنزالا لقدره ، أو حسدًا له ، فلا يلتفتُ إلى ما في مقالة قرينه من خير له ، فيكون هو الخاسر ، وما ضرّ بهذا إلا نفسَه . وقد كان من أدب الإمام الشافعي رَضِيَ اللهُ عَنه أنّه يقول : ما ناظرت أحدًا إلا رجوت أن يظهر الله تعالى الحقّ على لسانه . فإذا كان هذا حال الشافعيّ ، فأولى بنا طلاب العلم أن نحب من يهدِي إلينا عيوبنا ، وإن فعل في جمع محشود .

يتجاوزَهُ في التأويل تجاوبًا مَعَ طاقاتِ العقلِ ، فلا يستقيمُ إطلاقُ سُلطانه فِيما هو العاجزُ عَن إدراكِه فضلاً عن تأويلِهِ .

ترى شيئًا من معالم هذا فيما عرضَ له الشيخ في تأويل قول النبيّ ﷺ : « لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ يَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِى . فَأَقُولُ لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ .... » .

هو يهدينا إلى أن لا نُوظِّفَ العقل في فهمَ ما هوغيبٌ ، وأن لا نقحمه في محاولة تصور كيفية ما أُنبئنا به من الغيب . فالعقلُ أقدر على فهم المعنى ، وأعجزُ عن تصوّر كيفيته . واستعمالُ النّعمةِ فيما خلقت له ، وصِيانتُها عن استعمالها فيما لم تخلق له هُو عيْنُ شكرِ هذِه النّعمةِ .

منفعةُ العبْدِ في العرفانِ بالمعنَى ، وليس في تصوّر الكيفية ، لأنَّ تصوّر الكيفيّة ينفعُ مَن يريدُ أن يصنعَ مثله ، وهذا ليس ممّا في طاقة عبدٍ من العالمين ، لذا منح لنا العلم بالمعنى ، وطوى عنا تصور الكيفية . صرفًا لنا عما يَشغلنا ولا ينفعنا ، في هذا ما ينفعنا في تربيةِ أبنائنا وطلاَّبِ العلم ، لا نشغلُهم بالقولِ فيما لا ينفعُهم ، فمثلُ هذا ذو ضُرٍّ بالغٍ في تحقيقِ العلم بِما ينفعُ .

وما اشتغلَ عبدٌ بما لا ينْفَعُه إلا ضيَّع بمِقدارِه أوْ أَكثرَ مِنه ممَّا ينفعُه . وتلك آفةُ كثيرٍ مِن طلاَّبِ العلمِ

هذا اللفتُ مِن الشَّيخِ يربّينا به نحْنُ طلابَ العلمِ أن لا نضلَّ في استعمال النّعمة ، وأن نكونَ على بصَرٍ بحُسن استثمار نعمةِ العقلِ والوقتِ ، فهما ممّا يُغبن فيه طالبُ العلم ، وكأنّي بالشَّيخ يهتفُ فينا : إرشادُك تلميذك إلى حُسن التَّعامل مع النِّعم ومَع الوقت والأدوات مقدمٌ على تلقينه مسائل العلم .

أنت إذا ما أحسنت تربيته وتأديبه في باب حسنِ استثمار نعم الله تعالى عليه ، فقد أعددته لأن يَنتفعَ بقليلٍ ما يمكن أن تضَعه بين يديه من العلم ،

فيسْتحيل القليلُ كثيرًا . وهذه مهارةٌ إذا ما اكتسبها المرْءُ وأحسن استثمارها لـن يشعر بالعوز قطُّ[1].

إنَّـك إنْ ملأت وعاءه (قلبه) بفيضِ الحكمة وقليلٍ من العلـمِ فقـد أحسـنت إليه أيّما إحسان ، فَكثيرٌ من الحكمة مع قليلٍ من العلم هو الأوفرُ عطاءً وأنجع ارتحالاً ، أما إن ابتليْتَ تلميـذك بكثـرة حمـلِ دقـائقِ العلـمِ وهـو الخـلاء مـن الحكمة ، فإنك قد ألقيت بِه من حالقٍ في مستنقع الضَّلالِ والإضلال .

هذا يفسر لك شؤم تقصير الأشياخ في تعليم تلاميذهم الحكمة ، وتربيتهم فخرج علينا طَغامةٌ من شُيوخِ الفتنة والفحشاء يملؤون وسائل الإعلام بزبد القول وحُثالته ، تشقشق ألسنتهم بكلّ ما أبصرت أعينهم على صفحاتِ الكتب ، فحملوا بغيرِ عقلٍ ونشروه بغيرِ حكمةٍ في العامة ، فزادوا النَّاسَ فتنة وضلالا . وإنّي لأخشى أن يحملوا أوزارهم وأوزار من فتنوهم وأضلوهم . فسفكوا الدماء وانتهكوا الأعراض وسلبوا الأموال ، بل وتجرَّؤُوا على الله تعالى وعلى رسوله صَلّى الله عليه وعلى آله وصَحبه وسلّم .

* * *

ومن معالم تربية الشَّيخ لنا ـ طلاَّبَ العلم ـ أنَّه أحيانا يصفُ لنا حالَه وهـو يبحثُ عن الحقيقةِ ، ويكشفُ أستارَها ، ويزيلُ عنها غلالتها ، فيرسُمُ لنا بعضَ معالمِ منهجِه في الفهمِ والتَّأويل ، ما تراه وهو يحدّثك عمَّا كان ، وهـو ينظـرُ في أثرِ الغُلول والنَّهي ، وفِي أثرِ منع الزَّكاة ، وما واجهته به المفارقة بين حـالِ

(١) لَوْ أننَا أحسنَّا قياس منازل طلاب العلم في مراحل التعليم بقياسِ قدرتهم على حسن توظيف ما معهم من العلم ، بدلاً من قياسِ مقدارِ ما معهم من العلم لكان هذا أ جدى، فبدلا من أن نسأله عن مذهب فلان في مسألة كذا نذكر له مذهبه ثم نطلب منه أن يبيّن لنا كيف يمكنه أنْ يستثمر هذا المذهب فيما ينفع .
مثل هذا يحملُ طلاب العلم على أن يجمعوا إلى حمل العلم مهارة استزراعه وإحياء مواتِه . .

أصحابِ كلٍّ ، أثارَ استغاربَه أن الغلولَ والانتهابَ وهو في مرأى العقل أشدُّ ، فيلتفتُ أولاً إلى ما بيْن الفعلين وما وقعا عليْه من مفارقة ، فالغلولُ والانتهابُ واقعٌ على مكتسبٍ من حرامٍ ، ومنعُ الزَّكاة واقعٌ علَى مكتسبٍ مِن حلالٍ . وينظرُ إلى أثرِ كلٍّ ، وكَيف أنَّ قليلاً مِن الحَرام المتمثل في مقدارِ ما مُنع من الزَّكاةِ كيف اجتاحَ ما بقي ، وكيف أنَّ أثرَ اثنين ونصف من كُلّ مئة اجتاحَ سبعًا وتسعين ونصفًا .

وكأنّ الشَّيخ يلفتنا إلى أن لا نستخفّ أثرَ القليلِ من الحرامِ ، فإنّه ليغلبُ أضعافَ أضعافِه من الحلال ، وأنت إذا ما نظرته معادلا في واقعِ حركةِ الحياةِ ألفيْتَ أنَّ قليلاً من أحفادِ أبي لهب في الحياة يفسدُ الحياة على أضعافِ أضعافِه من غَيرهم ، فعلينا أن نبطلَ أثرَ هذه الثلة ، وإن قلَّتْ ، فالاعتدادُ بالأشياءِ ليس بكثرةِ عددِها ، وإنما بفاعلية عُدَدِها .

وهذا ملحظٌ تربويّ نبيلٌ من شيخِنا ، لأنّا قد نستكينُ حين نرَى نسبةِ الشَّرّ أقلَّ بِكثير من نسبة الخير فينا ، دون أن نلتفتَ إلى فحولةِ الشَّرّ وإن قلّ ، واغتررنا بقلّة عددِه وعددِ صَانعيه ، فلا اغترار بكثرة ، ولا استخفاف بقلة ، فيكون لسانُ حالنا يصيحُ : لنْ نُغلب اليوم عن قلة ، فيقال لنا قد أعجبتكم كثرتكم .

فإذا ما التفتنا بهذا الملحظ التَّربويّ في تلقينا البيان البليغ ، فإنّا لَنبصرُ أنّه ليْس الاعتداد في بلاغةِ البيان بكثرة الأساليب التي اتخذت في تصوير المعنى ، بل بمدى فاعلية هذه الأساليب في قلوبنا .

والّذي يفاضلُ بين الأساليب في تصوير معنى من المعاني بكثرة أساليب هذا وقلتها في هذا ، وبسطة الصُّورة هنا ، ووجازتها هناك . . . فإنّه لمْ يأخذ القسطاس المستقيم في المفاضلة .

الذين ذهبوا إلى علوّ بلاغة قول الله تعالى ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (هود:٤٤)

بوفرة الأساليب التي اشتملت عليها الآية على نحو ما ذهب إليه ابن أبي الأصبع في كتابه «بديع القرآن» في باب : «الإبداع» لم يضعوا أيديهم على معدن الحسن .

معدن الحسن ما في الآية من معالم جلال الإلهية وجمال الرَّبانية .

جلالُ الإلهية وقهرُها وسطوتُها ظاهرٌ جدًّا في الآية ، وكذلك جمالُ الرّبوبيّة . ولولا ذلك لما كان لهذه الأساليب الّتي هي مجلى هذا الجلال والجمال الكاملين قيمة في ذاتها .

ولو أنّ شاعرًا جمعَ هذه الأساليب كلها التي في الآيةِ ، وعلى المنوال نفسِه في معنى افتراه من نفسِه الشّاعرة لما رأيت فيها شيئًا ممّا أنت تراه فِي الآية من الجلالِ والجمال .

ليس مرجع الإعجاز في بلاغة القرآن إلى النَّظم من حيثُ هو ولا من حيثُ وفرة الأساليب البلاغية وتنوعها بل مرجع ذلك أيضًا إلى ما يحملُه النّظم بدءًا من بناء الجملة وانتهاء ببناءِ السورة من معاني الهدَى الممزوجة بجلال الإلهية وجمال الربوبية ، هذه المعاني هي مَعدِن البلاغة المعجزة ، وما النَّظمُ إلا مجلاها ومشهدها ومرآتُها .

والحقّ سُبْحانَه وبِحمدِه لم يطلب منهم في التحدي الإتيان بنظم يحملُ مثل هذه المعاني بل طلب منهم الإتيان بنظم مثله يحمل معاني مفتراة (مقتطعة مقتصدة) من أنفسِهم وحياتهم ومعارفهم كالتي تجري في أشعارهم .

وهذا من التخفيف عليهم ، وبرغم من ذلك كله خاسوا وأبلسوا . فكيف إذا ما طلب منهم أن يأتوا بنظم يحمل معاني كمثل التي يحملها القرآن؟!!!

أنف الأمرِ ورأسُه أن يعتدّ بمدَى فاعليـة الأسـلوبِ في المعنَـى وفي الـنَّفسِ المستقبلة ذلك الأسلوب . فقد يسبق درهم ألف درهم .

الأهمُّ هنـا أنّ الشَّـيخَ يقُـول في تأويـل مفارقـة بـين تصـوير جـزاءِ الغلـولِ والانتهاب ، وجزاء منعِ الزّكاة « وقفتُ عندَ هذا الشيءِ الغريبِ ، ولم أجد له إلا تفسِيرًا واحدًا وهو محاماة ربّنا عن هذه الطَّبقة المطحونة التي تصرفُ لها أموالُ الزَّكاة . .

قلت : إنَّ السّؤال الذي عَنَّ ، وكان لا بدَّ أن يعنَّ : لماذا كانت الإبلُ المنهوبةُ مُسالمةٌ لِمن نهبها ، إذا قيسَ حالها بحـال إبـل مـانعِ الزكـاةِ الـتي كانـتْ تطـؤه بأخفافها ، وتعضه بأفواهها ؟

ولم أقرأ جوابًا لهذا . وإنما استخرجتُه . وأُضـيف أنَّ الَّـذي سـاعدنِي علـى ذلك هو اقترانُ الزّكاةِ بالصّلاة فِي الكتاب العزيز ، والصّلاةُ عَمودُ الـدّين ، مـن هَدمها فقد هَدم الدّين وليس هذا أردتُ ، وإنما أردتُ أنَّ الصّـلاةَ تكـررتْ فِـي القرآن ؛ لأنها تتكررُ فِي اليومِ خمسَ مـراتٍ ، بالإضـافةِ إلى السّـننِ والنَّوافـل ، والزّكاةُ التي تكررتْ معها لَم تتكرَّر ، وإنّما هِي كلّ حولٍ . . . فكان الذي وراءَ هذا التّكرارِ هو التذكير بِحقوق هذه الطبقةِ المطحونةِ .

إغفال هذه الطبقة وراء غضبِ الله علـى مـانعي الزكـاةِ ، ووراء تكـرار لفـظ « الزّكاة » واقترانه بعمود الدينِ . هذا والله أعلم . »[1]

أول ما يلقانا قوله : « وقفتُ عندَ هذا الشيءِ الغريبِ ، ولم أجد له إلا تفسِيرًا واحدًا »

تبصر دقته في عبارته : « ولم أجد له إلا تفسيرًا واحدًا » هو لم يقل وليس له إلا تفسيرٌ واحدٌ ، فهذه لا يقولها مثله .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٥٦٤/٢، ٥٦٥

هو لم ينفِ أن يكون هناك تفسيرات أخرى هو لم يجدها ، برغم أنَّها موجودة ، هو يصفُ لك حاله لا حال التفسيرات ، وفي هذا من إغراء طلاب العلم أن يبحثوا عن تفسيرات أخر وهذا يعلمنا الأمانة والموضوعيّة ، والصّدق والتواضع ، وهي من أركان أخلاق طالبِ العلم ، وأدبه في طلبِ العلم وفقهه ونشره ، وهو من أنفعِ ما يفتقر إليْه طلاَّبُ العلم ، وهوالمقدم على تحصيل دقائقِ العلم ، وهو المستدام حضورُه طيلة رحلة طلب العلم التي لا تنتهي إلا بانتهاء حياة المرءِ ذي القلبِ السليم .

ويلقاك قوله : ولم أقرأ جوابًا لهذا . وإنما استخرجتُه «هو بهذا يغريك أنْ تنظر في مقالِه ، وأن لاتسلم عقلك له ، بل عليك أن تنظر فيه وتفتشه ، فإن رأيت هو الصواب فحذ وإلا فابحث عن الصواب حيثُ حلّ .

مثل هذه العبارات في كتاب الشّيخ ليس مَخرجها التفاخرُ ، معاذ الله تعالى أن يكون ، بل مبعثُها بعثُ طلاّبِ العلم ألا يأخذوا ما اجتهد فيه مأخذ الحقائق المسلّمة التي لا محيدَ لهم عنها .

ثمَّ يعمدُ الشّيْخ إلى بيانِ ما أعانَه على هذا الَّذي ذهب إليه فيقول : «الَّذي ساعدنِي على ذلك هو اقترانُ الزّكاةِ بالصّلاة فِي الكتاب العزيز . . . . «فدلنا على طريقته في استخراج المعاني مِن خلالِ النَّظر في سُنة البيانِ في استعمال المعاني واقترانها ، فهذه السُّنةُ فيها ما يُعِينُ على البَصرِ بمواقِع المَعاني بعضِها مِن بعضٍ .

ثم يأتيك بيان المفارقة بين جزاء الغلول والانتهاب ، وجزاء منع الزكاة :

الغلول والانتهابُ إنما هو من مالٍ عامٍّ فِي أصحابه من هو القويّ القادرُعلى أن يردّ الغالّ والمنتهب ، وأَن يسمَه على خُرطومِه ، وفوقَ هذا هُو فعلٌ ظاهرٌ ، إمَّا في أثناء مباشرةِ الغلول والانتهاب ، وإما فيما وراء ذلك . أمَّا مانعُ الزَّكاة ، فإنّه آخذٌ حق فقيرٍ ضعيفٍ غير مُتعيّن ، فهُو لا يملِك القدرةَ الماديّةَ على

المطالبةِ بحقِّه ؛ لأنَّه قد يقولُ له الغنيّ قد أعطيتُ الزّكاة لآخرين ، وهوأيضًا يستحيي أن يطالبَ به .

وفرقٌ آخرُ : قد يكونُ الغالُّ أو المنتهبُ محتاجًا إلى ما غلّ وانتهب ، فأخطأ الطريق إلى اكتساب ما يحتاجُ ، أمّا مانع الزَّكاة ، فإنه المستغني عن هذا القدر الضئيل من المال ، فلم يسدّ شرهه ما بقي له ، فطمِع في ما للفقير ، وتلك لا يقدم عليها إلا مَن توغَّلت الحقارة فيه أيّما توغُّل ، فكان الجديرَ بأن يكونَ جزاؤه كذلك .

وفرقٌ آخرُ : هذا المانع الزّكاة ليس له في نصيبِ الفقير أدنى حقّ ، فهذا القدرُ الذي عيَّنه الشرعُ هُو ملك خالصٌ لفقيرٍ غيرِ مُتعيّن شَخصُه ورسمُه ، وأمّا ما يغلُّه الغالُّ أوْ ينتهبه المنتهبُ له فيه بعضُ حق ، ففيه شبهة ملكيّة ما ، كالّذي يأخذُ مِن المالِ العامِ بغيرحقّ ، فإنّه لا يُسمَّى في اصطلاحِ الشريعة « سارقًا » ولا يُقامُ عليه حدّ القطع ، لِما في فعلِه مِن شُبهةٍ ، وإنْ كان لوليِّ الأمرِ العادِل أن يعاقبَه بما فوقَ القطع .. فكان مانعُ الزّكاة أحقّ بتفظيع العقوبةِ .

وفرقٌ آخرُ : مانع الزَّكاة قد أساءَ مقابلةَ نِعمةِ الله سُبْحانَه وبَحمدِه بإكرامِه أن يكونَ هُو المؤتِي المَادَّ يمينه بالإحسَان ، وكان اللهُ جَلَّ جَلالُهُ هُو المقتدرُ علَى أن يجعلَه هُو المؤتَى (بالفتح) ، فقابل الإكرام بقبِيح الفعل .

وفرقٌ آخرُ : مانعُ الزَّكاة أقام مَن منع عنهم حقوقِهم مقامًا فيه من الهوان والمذلة ، والألم ما فيه ، فكان عقابُه من جنسِ عملِه .

وفرقٌ آخرُ : ما منعَه المانع حسبَ ـ جهالةً ـ أنَّه نافعه ، وأنّه المحقق له شيئا من المكانة في قومِه مهما اتسعت رقعتهم ، فجعله الله تعالى هوالمذلَّهُ والمهينهُ على رؤوس الأشهاد أجمعين يوم القيامة .

تتوافد عليك فروقٌ غيرُ قليلة من المفارقة بيْن الفعلين إنْ أدمْت التبصّر ممَّا يترتبُ عليه مفارقة بين الجزاءين .

* * *

ومن البُعد التَّربويّ في قراءته بيان النّبوّةِ ما يمثلُ لنا معلمًا من معالمِ شَخصيَّته في بَحثِه أنّه يقفُ عند ما هو متيقِّنٌ من صحةِ ما يقُولُ في تأويلِ البيانِ ، ولا يقتحمُ ما لا يقينَ عنده أنّه منسُولٌ مِن بيان النُّبوَّة ، فتراه في مواطنَ عِدّة من «سِفرِه» يؤذن فينا أنَّه لا يتبيَّن له وجهُ البيان بكذا ، أو وجه مناسبة كذا لكذا ، ولا يستحضرُ مقامَه بيْن طلابِه وأقرانِهِ في حجزه ذلك عن أن يؤذِّن بما أذَّن ، بل استحضارُه مقامَه فيهم يحملُه إلى أن يجهرَ بما جهرَ . فهو في تأويلِ المناسبِ بيْن آكل الرّبا والقيام من القبرِ ، وهو مصروعٌ يجهرُ بأنَّه لم يفهم المناسبةَ ، ويعلن أنَّه يَبحثُ دائمًا عن المُناسبة التي تسكن إليها النفسُ ولو سكونًا قليلاً[1]

تبصّر مقالَه هذا وكيف أنّه يعلمنا أنّ القول في العلم لا يؤخذ فيه بأوَّل خاطر ، ولا يكره النُّفوسُ والعقول والقلوب أن تأتيَ بما تسكنُ إليه . فليس المُهمّ أن تتكلَّم ، ولكنَّ المُهمّ أن يكون كلامُك ممَّا تسكن إليه النُّفوس الزَّكية . وهذا يُعلّمنا ـ نحن تَلاميذه ـ أن هنا ما يجبُ الاجتهادُ في تحقيقِ الأسبابِ الّتي تهيئنا لكشفِ وجه من وجوه هذه المُناسة ، لأنَّ المناسبة لا محالة قائمة ، بيْدَ أنَّه وهُومَن هُو لم يَجد ، فلعلَّ أحدًا من تلاميذه هوالذي يجد ، كذلكَ يحملُ الشَّيخُ تلاميذه على أن يركب متن المجاهدة من بعد أن يُحسنوا التَّهيُّئ لِذلك .

وإعلانُ العالمِ عجزَه عن أن يُبصرَ شيئًا موجودًا حاول هو أن يبصرَه ، هو استحضارُ لعجزِه عَنه ، أن الذي يقوله إنّما يقوله بالله تعالى ، وأن الله تعالى لو خُلّيَ بينه وبين عقلِه ولسانِه لما تُحرّكا بشيْء البتة أو لما تحركا إلا بما لا تحمدُ عقباه ، وذلك صورة من صور التَّرقّي في مقام التَّسليم والعبودية لله ربّ العالمين .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢٠١/١

وإذا ما كان أهلُ التّربية والإرشادِ في الطريقِ إلى الله تعالى يقولون : ربَّ ذنب يورث المرْء ذلاً وانكساراً خيرٌ له من طاعة تورثه عجبا واستكباراً ، فكذلك ربّ عجزٍ من العالم أو طالبِ العلم عن أن يفهم في العلم شيئًا أو أنْ يُبصرَ ما يُمكن أن يبصرَه مَن هُو دُونه في المقام العلمي هو أنفع له من بصرٍ بدقيقةٍ ولطيفة وغريبةٍ وشاردةٍ وآبدة قد يلقيه في مستنقع العُجب وغمط الأقران .

يعلمنا الشيخ أن يستجني من عجزنا حين نعجز زادًا في رحلتنا إلى ربنا سُبْحانَه وبِحمدِه كذلك الشيخ يقوم فينا مرشدًا في الطريقِ إلى الله سُبحانه وتَعالى .

* * *

ومن هذا الباب ما تراه عند نظرِه في اصطفاءِ سيّدنا عبد الرحمن بن شُماسة رَضِيَ اللهُ عَنه كلمة (نقمنا) دون (كرهنا) حين سَألته سيّدتنا أمَّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنها عن أميرهم : « كيف كان صَاحبكم لَكُم في غزاتِكم هذه ؟ . فقال : « ما نقِمنا مِنه شيئًا »

يقُولُ الشّيخُ : « سألتُ نفسِي : لماذا لَمْ يَقُل ما كرِهنا مِنْهُ شيْئًا؟ ولِماذا آثرَ « النّقمة » هُنا؟ والكرْه أقل درجةً من النقمةِ ، والنقمةُ منها الانتقامُ ، وهي الكُرهُ المَشُوبُ بالغَضبِ والغيظِ والرّغبةِ فِي المعاقبةِ .

قلتْ : لِماذا آثرَ هَذِهِ الكلمة معَ أنّ قوله ماكرهنا منْه شيئًا أبينُ فِي أَنَّهمْ لم يجدوا شيئًا يكرهونه .

ولَم أقرأ فِي كلامِ مَنْ يؤخذ عَنهمْ العلمُ ماأكتبه لك ، وليسَ أمامِي إلا أنْ أكتبَ لَك ماأراه ، وإنْ كنتُ ممّن لايؤخذ عنهم العلم . « ويمضي الشَّيْخ في بيان ما رآه من مقتضيات اصطفاء كلمة « نقمنا » دون كلمة « كرهنا » فيذهب

إلى أنه قد يكون ذلك من أنَّ السياق في حقِّ أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنها سياق حنقٍ على قتل أخيها فاصطفى أن ينفي عنهم ما هو قائمٌ فيها هي رَضِيَ اللهُ عَنها قبل أميرهم .

وقد يكون فيه إلماح من ابن شُماسة رَضِيَ اللهُ عَنه إلى أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنها أنّه وإن كان غيرنا يجد ما ينقمه عليه لأمر ما ، فإنا أصحابه في هذه الغزاة ما نقمنا منه شيئًا .[1]

هذا من الشَّيْخ يحملُ إلينا زادًا تربويًّا في تلقّي العلم يتمثل في أنّ ميراث العلماء لم يسدَّ الطريقَ أمامنا إلى أن نجتهدَ في التّبصّر فيما لم يعرضُوا له ، وأن منطق حال موروثِهم يؤذن فينا صباح مساء : كم ترك الأوَّل للآخر . فليس من أدب طلبِ العلم وخدمته أن نكتفي بحمل ما قَالوا وباجتراره ، والسّكوتِ عما سكتوا ، بل من أدبِه أن ننظرَ في ما قالوا ، فنحمل خيرَه ونشكرَهم عليه ، وأنْ ندعَ غيره ، ونستغفرَ لهم ، وأنْ نعملَ في ما سكتوا عنه وَهُوَ غيرُ قليلٍ .

ويحملُ إلينا مقالُ الشّيخِ أهميَّة الوقوفِ على ما قالت العلماءُ أولاً مِن قبلِ أن نُعمِل قلوبنا ومهاراتِنا في الفهم والتَّأويل ، لعلّنا نجد في ميراثهم لنا ما يحسنُ أن نحملَه ، وأن نتخذه منطلقًا إلى الإضافةِ إليه ، أو نجد في مقالاتهم ما نفتقرُ إلى تفصيل مجمله ، أو تبيين مبهمه ، أو إكمال نقصِه ، أو تسديد خلل فيه ، أو إنزاله على الواقع ، أو إنزال الواقعِ عليْهِ .

أما ما أوّل به شيخنا وجه اصطفاء سيدنا ابن شُماسة رَضِيَ اللهُ عَنه كلمة (نقمنا) دون (كرهنا) فهو نظرٌ في حال أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنها من جهة ونظرٌ إلى موقفِ ابن شُماسة رَضِيَ اللهُ عَنه من حنقها لما كان رعايته حقها في أن تنقم ، ورعاية حق الوالي في أن لا ينقموا منه ما لم يفعل معهم .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٤٣٦/١

سيدنا ابن شُماسة رَضِيَ اللهُ عَنه يهدِي بما اصطفاه إلى أنَّ نقمة أمّه رَضِيَ اللهُ عَنه على أميرهم لا يحملهم على أن ينقموا منه كلَّ شيءٍ ، فذلك من الحيفِ على أميرهم ، فاصطفى كلمة (النقمة) مشاكلة لما استشعره من حال أمه رَضِيَ اللهُ عَنها ، فلفت إلى أنّه إذا كان من حقها رَضِيَ اللهُ عَنها أن تنقم منه قتل جيشِه أخاها ، فإن من حقِّه هو أن لا ننقم عليه شيئًا لم يفعله معهم في غزاتهم .

وهذا يعلمنا مبدأ العدل في العلاقة بالآخرين ، وألا نخلط الأمور بعضها ببعضٍ ، فإن نقمت من أحدٍ شيئًا ، فلا يجوز أن أنقم منه كلَّ شيءٍ ، فكلُّ شيء له حكمه .

ويُمكن كذلك أن يكون سيدنا ابن شُماسة رَضِيَ اللهُ عَنه اصطفى كلمة (نقمنا) دون (كرهنا) ليكون أعظم صدقًا في وصفه الواقع ؛ لأن نفي النقمة ، لا يلزم منه نفي الكره ، فهو لم يزعم أنّهم ما كرهوا منه شيئًا ، فذلك لا يكاد يتحقق ، فليس ثَم مَنْ لا يرد عليه شيءٌ أو يكره من حاله أو قوله أو فعله شيْءٍ خلا سَيّدنا رسولَ الله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ . فلو قال : ما كرهنا منه شيئا ، لكان هذا أقربَ إلى ادعاء أنَّه كان معصُومًا ممّا يُكره وإن دقّ . وهذا لا يقال ، فكان من الحيطة في البيان أن ينفي النقمة ، لأن هذا يُمكن أن يتحقق . فهو باصطفاء كلمة (نقمة) لاحظ حال الوالي ، وأنه قد يقع منه ما يكره ، ولكنه لم يقع منه ما ينقم .

وفيه أيضًا أن وقوع ما يكره من الوالي لا يدعو إلى تركه ، أمّا وقوع ما ينقم ، فقد يستوجبُ الاعتراض عليْه بالحسنى .

* * *

ومن معالم شخصيته التي تمثل بعدًا تربويًّا عَلِيًّا لنا اعتصامه بالحيطةِ في بحثِه عن الحقيقة وبالخشية من التقوّل هو حين يتبصّر حديثًا ، فيبرز له أثر الحديث في من سمعه من رسول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ

أوممن رواه عن رسول الله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ يسعى إلى أن يعرفَ مخرج هذا الأثر وموطنه ، ولكنّه حينًا يستشعرُ الخشية من أن لا يكون قد نفذ ، فيحتاط .

تراه في قراءته الحديث القدسيّ:« ياعِبادِي إنّي حرمتُ الظلمَ علَى نَفسِي ... » يقف عند ما جاء من الخبر بأنَّ أبا إدريس الخولانيّ إذا حدّثَ بِهذا الحديث جثَا على ركبتيْه « قائلاً : « ومِن الأمانةِ أنْ أقُولَ لَك شَيئًا أُحاولُه ، وأخشَى أن لا أُصِيبه ، فإذا فاتنِي ، فعليْك أن تجتهدَ فِيه ، وهومحاولة الوصُولِ إلى الشّيءِ الذي كان عندِه يَجثُو سيدنا أَبُو إدريس الخُولانيّ علَى ركبتيْهِ .

وقد صَادفنِي هذا فِي كثيرٍ من الأحاديثِ الّتي كانتْ إذا ذكرتْ برك بعضُ أصحابِ رسول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ ، ومثلها الآياتُ التي كان يُغشَى على بعضِهم عند سماعها .

أحاولُ الوصُول إلى الشّيءِ الّذي كان يَنفُذُ إلى قلوبهم ، فيجثُوا مَن يجثُوا ، ويبركُ مَن يبركُ ، ويُغشَى على مَن يُغشَى عليهِ ، وهذا يحتاجُ إلى قدرٍ من الشّفافيةِ يَهبُ اللهُ منها ما يشاءُ لِمن يشَاءُ»[1]

وغير خفيّ أنَّ مثلَ هذا الذي يكون ممّن يتلقّى هذا البيان إنما هو فاعليّة البيان في قلبٍ مؤهل للتلقّي ؛ لأنَّه لا يفعلُ ذلك كلُّ من سمع ، فالغيثُ هو الغيثُ ولكنَّ الأرضَ مختلفة ، وهذا يستحضرُ في القلبِ ما رواه الشيخان من حديث سيدنا أَبِى مُوسَى الأشعريّ عَنِ النَّبِيِّ صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ قَالَ : « مَثَلُ مَا بَعَثَنِى اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ،

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ٢/٢٩٥

وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى ، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً ، وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِى دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِى اللَّهُ بِهِ ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ»

هذا الحديثُ القدسيّ الذي هو محلُّ النظر : (ياعِبادِي إنّي حرَّمتُ الظلمَ علَى نفسي وجَعَلْتُهُ بَيْنَكمْ مُحرّما) يعلوه ـ كمثل سائر الأحاديثُ القدسية ـ جلال الإلهيَّة ورهبوتها وجمال الرُّبوبية ورحموتها .

وهذان لهما حضورٌ مستمد من حضورهما في البيان القرآنيّ ، وهذا ما يجعلُ القول بأنَّ الحديثَ القدسيّ معناه ومبناه من الله تعالى إلا أنَّه لا يتحدّى به ، ولا يتعبدُ بمجرد تلاوته ، ولا تقام به الصّلاةُ ويأتي به الوحي عن طريقٍ غير طريق الوحي بالقرآن ، ولا تُشترط الطهارة لقراءته . . . إلخ ما يختص به البيانُ القُرآني .

* * *

على الرغمِ من أنَّ الحديثَ القدسيّ لا يتحدَّى بِه ، فإنّه عندي معجزُ ، فالمعجز أعمُّ من المتحدّى به ، فما كلُّ معجز بمتحدّى به ، ألا ترَى أنَّ هنالك معجزاتٍ لرسول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلى آلِهِ وصَحبِهِ لم تأت للتحدّي . فالمعجزُ هو كلُّ ما لا يُمكن أن يؤتى بِمثله من أحدٍ غيرِ الذي أتى به ، وإن لم يتحدَّ فاعله بِه أحدا ، ولم يقل هذا دليلي على صدقِي .

ألا ترَى أنَّ جميعَ شأن سَيّدنا رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ولا سيّما في مكارمِ أخلاقِه ورحمتِه ورأفته ممَّا لا يستطيع أحدٌ البتة أن يأتي بِمثلِه ، فجميع شأنِه ﷺ هو عندِي معجزٌ ، وإن لم يتحدّ َ بِه ، وإن لم يقلْ مكارم أخلاقِي ورحمتي ورأفتي هي معجزتي أتحدّى بها ، وأستدلُّ بها على أنّي من عندِ الله سُبْحانَه وَتَعالَى رسولٌ إليْكم . ولكنَّ لسانَ حال هذه الأخلاق

يُؤذّن في النَّاس أجمعين أنَّ هذا من دلائل نبوتِه صَلّى اللهُ عليه وعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم .

وغيرُ قليلٍ ممن لا يؤمنون به من أهلِ النّظر في زماننا هذا الذي ركبوا متن الموضوعية في دراسة شأنه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ جهروا بأنه نبيّ من عند الله سُبْحانَه وَتَعالَى .

دراسة سيرته ﷺ وحركته في الحياة ، وعلاقته بالكونِ والحياةِ والإنسانِ وفي تأسيسه أمة بقيتْ قرونًا على الرَّغم ممّا يحاك لها من داخلها وخارجها ، ولو منيتْ بمعشاره أيُّ أمة لانهارت سريعًا .

لذا فإني على أنَّ الحديثَ النَّبويّ هو عندي معجزُ ، في محموله من معاني الهدَى وفي صورة هذا المحمول ولكنّه برغمٍ منْ ذلِك لا يُتحدّى به ، ولا تجد أحدًا ذا عقلٍ وذوقٍ فِي العربية يُمكن أن يقول لك إن هنالك من يُمكنه أن يقول مثل ما قال رسول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ ، ففي بيانه صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ أشياءُ مخرجها النّبوة ، وهذا لا يُمكِن لأحدٍ أن يحوزه ، ليكون بيانه ، كبيان سيّد المرسلين صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ .

الحديث القُدسيّ نحنُ نفتقرُ إلى دراسةٍ تُعنَى بتبصّر معالمِ الجلالِ والجمالِ في معناه ومبناه وما سِيق له . ومَدَى علاقتِه بالقرآنِ في المعنى والمبنى والمَقصِدِ ، ومَدى علاقةِ البيان النبويِّ به : أَهِيَ كمثل علاقتِه بالقُرآنِ ؟ ومَا مَعالمُ ذلك؟

إنه لبابٌ مِن العِلم وسيعٌ عميقٌ لا يَقدِرُعلى أن يأخذ بحقِه إلا صفيٌّ من أهلِ العلم والتّقى معًا ؛ فإنّه لا تكشّف أسرارُه لأمثالنا ، فغيرُ قليلٍ منه لا يُبلغُ حِماه على متنِ العلم المُكتسبِ الملقّن ، بل لا بُدّ فيه من إشراقِ القلبِ ، وطلاقة الرّوحِ ، وتلك الّتي دُونها خَرْطُ القتادِ .

إنَّ الفاعلَ في أبي إدريس الخولاني فجعله يَجثو صادف من قلبه استحضاراً لمقام الخشيةِ على مقامِ الرَّجاء ، على الرّغمِ مِنَّ أنَّ معالمَ الرّجاء قائمةٌ في الحديثِ إلا أن استفتاحه واختتامه إلى الرَّهبوتِ أقرب ، ويكادُ يكونُ جلالُ الإلهيَّةِ في قوله سُبْحانَه وَتَعالَى : « يَا عِبَادِى إِنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا »

وقوله : « يَا عِبَادِى إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّى فَتَضُرُّونِى وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِى فَتَنْفَعُونِى

يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِى مُلْكِى شَيْئًا

يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِى شَيْئًا

يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِى فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِى إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ

يَا عِبَادِى إِنَّمَا هِىَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ » .

أقرب حضوراً في القلبِ ، فمن لم يتبصَّر لا يستشعرُ قلبه جمال الرّبوبيّة في هذا الجلال .

ومن يقرأ قوله جلَّ جلالُه : « يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِى أَهْدِكُمْ

يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِى أُطْعِمْكُمْ

يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ

يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ»

يجدُ جمال الرّبوبية وعطاءَها أقرب حضوراً في القلبِ ، فمَن لم يتبصَّر لا يستشعِرُ قلبه جلال الإلهية في هذا الجمالِ . في كلٍّ يمتزِجُ الآخر ، ويتفاوتُ ظهور أحدِ المتمازِجين في بعضٍ .

ولا أعرف آيةً في كتابِ الله تعالى انفردَ فيها الجلالُ عن الجمالِ أو انفرد فيها الجمالُ عن الجلالِ ، هُما معًا حاضِران في كلّ آيةٍ ، وإن تفاوتَ ظهور حضورِهما مِن آيةٍ إلى أخرى ، فالتفاضُلُ في الظهور لا فِي الحضُور ، ولعلّ الأحاديثَ القدسيّةَ على هذا المِنوالِ .

ومن يقرأُ الحديث يجدُ أنّ جلال الإلهية في الحديثِ ليس وحدَه هوالّذي حمل على الجُثو على الرّكبتين الذي هو آية على ثقلِ ما حلّ بالجاثِي ؛ لما فيه من ثقلٍ يدركه القلبُ السليم ، بل إنَّ الجمال عاملٌ قويّ فتي في تحقيقِ هذا الجثو ، فكم من جمالٍ هو يُقيمك في مقام الدّهشِ والتبتّل .

معالم الجلال والجمال بالغة الظهورِ والفتوة في هذا الحديثِ لا يكادُ مُصغٍ إلا هو مُدرِكهما .

ألا ترى أنه حين يقرأ القلبُ السليم المعافى من داء الغفلة قول الله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة:٢،٣) وهو الذي غلب فيه ظهور الجمال على الجلال ، يستشعر هذا القلب ما فيه من الهيبةِ والمهابة والرَّهبةِ على الرغم من أنه حديث في الحمد والربوبية والرحمانية والرحيمية ومظاهر الجمال فيها ظاهرة جلية فتية ، لأنه يستشعرُ استحقاقات التَّجلّي على العبد بهذا الجمال ، وما يترتَّب عليه من تقصيرِه في الوفاءِ ببعض حقِّ هذا التَّجلّي ، فيكادُ ينخلعُ القلبُ مِن مخافةِ التَّقصيرِ ، فيَجثُو .

وهُوحين يقرأُ بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة:٤) وطابع «الجلال» فيه جدّ ظاهر ، ممَّا قد يُغفلُ عمَّا فيه من جمال ورحمةٍ وإحسانٍ ، يستشعرُ القلبُ البصيرُ هذا الجمال قائمًا في هذا الجلال . يستشعرُ أنّ اختصاصه بهذا يحملُ البشرى بأن القلب المخبتَ الأواهَ المتبتلَ سيلقَى وفيرَ الجزاءَ وجزيله ، وأن المظلوم سينتصِفُ من ظالمه ؛ لأنَّه لن ينازع الله تعالى في ذلك أحد ، فيطمئن القلبُ أن ما قدَّمه من إيمان وعمل صالح سوف يراه . فيقوم العبد بين استحقاقات الجلال والرهب الأكثر ظهورًا واستحقاقات الجمال والرَّغب الحاضر في رحم الجلالِ والرّهبِ ، فيجمَع بين المقامين جمعًا يجمله إلى كمال التسليم والرّضا .

جُثو أبي إدريس الخولانيّ عند روايته هذا الحديث يلفتنا إلى أنّ مثل هذا البيان إنما يؤتى من قبلنا نحن المتلقينه ، فنحن لا نهيّئُ قلوبنا لتلقِيه ، فيمضِى عليها كمثل ما يمضي غيره من البيان ، وهذا مما نُغبنُ فيه ، وكأنَّ لكلِّ بيانٍ منهاجَ تهيئة لما يُتلقّى بِه .

هذه التهيئةُ هي التي يَتعيَّنُ على قدرها ما يكونُ من عطاء مثل هذا البيان ، فالبيان العليّ الكريم يعطِيك على قدرِ اتساعِ وعائك (قلبك) وعمقِه وطهارته ، فإنَّ الماجد الكريم والجليل لا يضعُ عطاءه في وعاء غير طاهر

* * *

ومن أبرز سمات الشَّيخ العلميّة والتَّربويّة الحاضرة في هذا السّفر أنّه يحتفِي بالأسئلة المزعجة المستفزة المرء إلى المجاهدة في التلقّي والفهم ، فهو لا يستكين إلى هين التساؤل ، ووديعه ، هو لما بُنيت عليه شخصيته من الحزم والجدّ الذي يراه رأيَ عيْن كلّ من قاربه وعايشه .

هُو لذلك يهشّ للأسئلة العَصِيّة . يقول الشيخ : « وأنا من المولعين بالكلامِ الذي يثيرُ الحيرةَ ، ويثيرُ أسئلة لا أعرفُ في كلام من يؤخذ عنهم العلم جوابًا لَها . والسُّؤال عِندي غيرُ المجابُ أفعلُ فِي نفسِي من السُّؤال المجابِ »[1].

وقد تعلمت من لسان حال الشيخِ كثيرًا أنَّ الرِّجال إنّما ينحتون الصَّخر ، يتخذون من الجبالِ بيوتًا . فمن تربّى على أن يبني بيتًا من الرمال ، فإنّ يدَه تَدمى حين تلامسُ الصَّخرَ .

هو بهذا يَحثّ طلابه إلى القيام لعصيّ الأعمالِ وأحمزها ، متخذين لذلك ما يليقُ بها من مهارات وأدواتٍ وفتيٍّ عزم ، وصادق قصد ، وفحيل صُنعٍ ، فَبمثل هذا تستعمرُ الأرضُ على وفق مرادِ الله تعالى الشرعيّ ، فتكون أهلاً لأنْ يستعمِرُ الله تعالى لنا جِنانا عنده على قدر مقامنا عنده سُبحانهُ وَتَعَالَى

* * *

ومن باب التّربيةِ والتثقيفِ النفسي ما يلفتنا إليه في قراءته قول النبي صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ : « إذا توضّأَ العبدُ المسلمُ أو المؤمن ، فغسلَ وجهه . . . . » (الحديث) يلفتنا إلى أن الصحابة لايروون حديثًا عن رسُول الله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ إلا وهو قائمٌ في لسانِ حالهم قبل أن يقُوم في لسان مقالهم ، فروايته بلسان الحال أجلى معنى ، وأبلغُ أثرًا ، فالعلم أساسُ العمل ، والعمل أداة تبليغ العلم ، وكأنَّ العملَ ، يجزي العلمَ على ما قدّمه له من تأسيسه على هدًى ، ونور ، فيجزيه بأن يكون هو أداة تبليغِه وحفظِه وتفسيرِه وتقريبه ، ممَّا يحقق للعلمِ حفظَه من الضياعِ ومن الإبهامِ ومن التّخالف في فهمه .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٣٢٤/١

obeikandi.com

طريفٌ أنَّ العربية قد جعلت ما يعربُ عنه كلّ منهما من ألفاظ العربية من مادة واحدة ، (ع . ل . م) لا يختلفان إلا في ترتيب مكونات ما يعربُ به عن الآخر : (العلم) ، و (العمل)

وهذا يُبين لنا عن عظيم العلاقة بيْن العلم ، والعمل وأنهما لا يفترقان ، ولا يصلح أحدهما إلا في حضرة الآخر . ولذا وصم من أخذ العلم وترك العمل به بأنّهم (المغضُوب عليه : اليهود) ووصم من أخذ (العمل) وترك (العلم) بأنّهم (الضّالون : النصارى) ونعت الجامعين بينهما بأنَّهم (الّذِين أنَعم عليْهم : المؤمنون)

وطريفٌ أنَّ كلا قد كانت فاؤه (عينًا) وهوحرفٌ يحملُ في دلالته الجلاءَ والظهورَ والقوة وكأنَّ في هذا هداية إلى أنْ يؤسَّس العلمُ على هذه الصِّفات .

ويَأتي (الميم) وهو حرفٌ يتّسمُ بالدّلالة على الجمع والقوة ولاسيما إذا زيدَ في آخر الكلمة «اللهم»و«زرقم» ، «ابنم» ، «حصرم» ، فجعلت (الميم) لام الفعل (علم) ليهدِي إلى أهمية جمع دقائقِ العلم ولطائفه ، فمبدؤه جلاء وقوة ، ومنتهاه جمع وقوة ، وجعلت (الميمُ) عين الفعل (العمل) دلالة على وجوب قوة متنه[1].

---

(١) القولُ بأن مِن وراء ترتيب حروفِ المباني في بنية الكلمة معنًى ، لا يأخذُ بِه عبد القاهر ، ويرى في كتابِه دلائل الإعجاز أنَّ نظمَ الحُروف في الكلم لا علاقةَ له بالمعنى الذي وُضعتْ له الكلمة ، وهو في هذا على غيرِ ما ذهبَ إليْه ابن جنّي في «الخصائص»

والَّذي حمل عبدَ القاهرإلى ما ذَهبَ إليْهِ فيما يظهرُ لي أمران .

الأول : أنّ ترتيبَ الحروفِ في بناء الكلمة ليس للمتكلم فيه اختيارٌ وصنعة ، ولا يسْتدرك به صوابًا جماليًّا ، وذلك هو معيار الفضيلة ، فهذا التَّرتيب إنّما هو ميراثٌ لغوي . ==

يُقُول الشّيخُ : «ولَمْ يكنْ أبوهريرةً ، ولا غيرُه من صحابِ رسُول الله ﷺ يَروي لنا حديثًا عنْهُ إلاَّ وهومصحوبٌ بالتطبيقِ العمليّ ، لهذا الحديثِ ، لأنهم لَمْ يعلَموا مِنهُ عِلمًا إلا عَملوا بِه ، وهذه هي بِدايةُ حركةِ العلمِ فِي الأمةِ ، والّتي وضَع فيها المنهج ، وأن التطبيقَ العملي لَمْ يَكنْ ناتِجًا للمعرفَةِ ، وإنما كانتْ المعرفةُ من أجلِه . . . إلخ»[1]

والشَّيخُ حفيٌّ بأن يحثّ طلابَ العلمِ على تربية أذواقِه وصناعة معارفهم من معارف أشياخه وسلفهم ، وأن لا تكون معارفهم هي معارف الآخرين ، فمن فعل فقد ظلم . تراه وهو يشرح قول رسُول الله صَلّى الله عليْهِ وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّم تسليمًا كَثيرا : «ما يُمكن أن يكون عنْدِي من خير فأدخره عنكم . . .» قائلا : «مهما أقوله لك من بلاغة وجزالةِ هذه الجملةِ ، فإنّه لن يُغني عنك شيئًا ، وإنّما أنصَحُ بأنْ تكرّر هذه الجملةَ بيقظةٍ كاملةٍ وتفريغِ خاطرٍ أو كما يقُول الباقلاني أن تصغى إليْها بِسكونِ طائرٍ ، وخفضِ جناحٍ ، وأنْ تقفَ عِندَ كلِّ كلمةٍ ، وأن تقلبها بِلسانك ، وأن تحاولَ أن تذوقها ، ولا تتركها حتّى تَجد طَعمها أو تذوقَ طَعمها ، كما يَجدُ المؤمنُ طَعمَ الإيمانِ ؛ لأنّ مُحاولَةَ تّذوّقِ مِثلِ هذا مِنْ بابِ تّذوّقِ حلاوةِ الإيمان . واحذرْ أن تعتمدَ علَى أيّ تحليلٍ فِي البلوغِ بِك إلى سِرِّ العبارةِ العاليةِ . واعلمْ أنّ أقدرَ الناسِ

== والآخر : أن هذا غيرُ مطَّرد ، فما تظهرُ حكمته قليلٌ ، وأكثرُه لا يتبين المرء حكمتَه ، وما كان كذلك فلا يحسن عدُّه من قبيل العلم القائم على أمرين كُلّيّين : الموضُوعية والاطراد .

أمّا نظمُ الكلم في بناء الجملة ، فذلك متحقّقٌ فيه الاختيارُ والصّنعةُ واستدراكُ صَواب ، وهوأيضًا أمرٌ مطرد .

من هنا كان موقف عبد القاهر .

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢٢٨/١

علَى بُلوغِ سرّها هو لِسانكَ المرتبطُ بخواطرك وبذائقتك وبحسّك ، وهذا هوالرائد الذي لا يكذبك أبدًا»[1]

تتجلى لك في هذا معالم شخصيته التربوية ، هو يضع بيْن يدك منهجًا يُمكنك أن تهتدي بشيءٍ منه ، فإذا ما عمدت إلى تجريبِ هذا الذي هداك إليه من أنْ تطعم به لذيذ المعاني وطريفها ، فإنك تقتدر مع طول دربة ، وصدق عزمٍ واتساعِ أفق معرفيّ أن تجعل لنفسك منهاجًا يلتقِي حينا مع شيءٍ من مناهجِ الآخرين ، ويمتاز أحايين عنهم ، فترى عون الله تعالى لك فيما تصنعُ . ورؤية المرء هذا فيما يصنعُ يُحبّب إليه العمل ، لأنه يرَى في صنيعه هذا ذكراه ، والمرءُ مفطورٌ على أن تكون له الذكرى الْحُسْنَى في مسِيرِه ومَصِيرِه .

* * *

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/٢٩٠

obeikandl.com

ثالثًا : البُعد البيانيّ

البعد البياني في آثار الشيخ هو البعدُ الأوفر ظهوراً وحضوراً في ما جاد به الشيخ علينا ، وإن كان البعدان الأولان : الإصلاحي والتربوي لهما في كتابه شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم الحظّ الأوفر ظهوراً منهما في سائر كتبِه .

البعد البياني الجماليّ[1] هو المرآة التي يهر فيها البعد الإصلاحي والتربوي

لا يكادُ يخفَى علَى مَن سَمع باسم الشَّيخِ أنّ عِماَد مُكون شَخصيتِهِ العِلميّة هو العلمُ العَريض العميقِ المتجدّد بِلسان العربيَّة في مستوياتِه الإفهامِيّة والفهميّة . من أنَّه يرَى الإنسانَ السّوي في لسانِه .

أنا صُورة منعكسة في لسانيّ ، يراني النّاس فيما يتحرك بِه لسانيّ ، فالإنسانُ السّوي إنَّما يتحركُ لسانُه وفقًا لما يتحرَّكُ في قلبِه.والمَرْءُ مَخبوءٌ تحت لسانِه، والله سُبْحانَه وَتَعالَى يقُول لرسُوله ﷺ في شأن المنافقين :

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ (محمد: ٣٠)

---

(١) الجمال « هو الأثرُ الواقعُ في النّفسِ السّوية من استكمالِ تقريرِ الحق ونصرتِه ، وصِناعةِ الخيرِ ونشرِه ، فـ« الجمال » ليس قسِيمًا لـ« الحق » و« الخير » بل هُو أثرٌ من آثار استكمالِهما في حركةِ الحياة ، ولا يستشْعره إلا النفسِ السوية القائمة على الفطرة ، التي لم تلوثها الشبهاتُ والشهوات والغفلةُ والعصبية الحمقاء .

وكلُّ ماتسْتروحُه النفوسُ الملوّثة من مشاهدة أومصاحبة محسوسٍ أو معقولٍ أومصاحبتهما ولَم يكنْ ذلك الأثرُ مستولدًا مِن كمال تحقق « الحق » و« الخير » فيما تولد منه ذلك الاستراوحُ هو ليس من « الجمال » الذي يحبه الله سُبْحانَه وَبِحمدِه

يقُول ابن القيم : « وَسَمِعْتُ شَيْخَ الإِسْلامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ يَقُولُ : عَلَّقَ مَعْرِفَتَهُ إِيَّاهُمْ بِالنَّظَرِ عَلَى الْمَشِيئَةِ ، وَلَمْ يُعَلِّقْ تَعْرِيفَهُمْ بِلَحْنِ خِطَابِهِمْ عَلَى شَرْطٍ . بَلْ أَخْبَرَ بِهِ خَبَرًا مُؤَكَّدًا بِالْقَسَمِ . فَقَالَ : وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَهُوَ تَعْرِيضُ الْخِطَابِ ، وَفَحْوَى الْكَلامِ وَمَغْزَاهُ .

وَاللَّحْنُ ضَرْبَانِ : صَوَابٌ وَخَطَأٌ . فَلَحْنُ الصَّوَابِ نَوْعَانِ .

أَحَدُهُمَا : الْفِطْنَةُ . وَمِنْهُ الْحَدِيثُ « وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ » .

وَالثَّانِي : التَّعْرِيضُ وَالإِشَارَةُ . وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الْكِنَايَةِ . وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

وَحَدِيثٌ أَلَذُّهُ وَهْوَ مِمَّا ... يَشْتَهِي السَّامِعُونَ يُوزَنُ وَزْنَا

مَنْطِقٌ صَائِبٌ . وَتَلْحَنُ أَحْيَا ... نًا وَخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنَا

وَالثَّالِثُ : فَسَادُ الْمَنْطِقِ فِي الإِعْرَابِ . وَحَقِيقَتُهُ : تَغْيِيرُ الْكَلامِ عَنْ وَجْهِهِ : إِمَّا إِلَى خَطَأٍ ، وَإِمَّا إِلَى مَعْنًى خَفِيٍّ لَمْ يُوضَعْ لَهُ اللَّفْظُ .

وَالْمَقْصُودُ : أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَقْسَمَ عَلَى مَعْرِفَتِهِمْ مِنْ لَحْنِ خِطَابِهِمْ . فَإِنَّ مَعْرِفَةَ الْمُتَكَلِّمِ وَمَا فِي ضَمِيرِهِ مِنْ كَلامِهِ : أَقْرَبُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِسِيمَاهُ وَمَا فِي وَجْهِهِ . فَإِنَّ دَلالَةَ الْكَلامِ عَلَى قَصْدِ قَائِلِهِ وَضَمِيرِهِ أَظْهَرُ مِنَ السِّيمَاءِ الْمَرْئِيَّةِ . وَالْفِرَاسَةُ تَتَعَلَّقُ بِالنَّوْعَيْنِ بِالنَّظَرِ وَالسَّمَاعِ .

وَفِي التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ . فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ». ثُمَّ تَلا قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ** ﴾ (الحجر:٧٥)

وَهَذِهِ الْفِرَاسَةُ عَلَى حَسَبِ قُوَّةِ الإِيمَانِ . فَمَنْ كَانَ أَقْوَى إِيمَانًا فَهُوَ أَحَدُّ فِرَاسَةً .

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخَرَّازُ : مَنْ نَظَرَ بِنُورِ الْفِرَاسَةِ نَظَرَ بِنُورِ الْحَقِّ ، وَتَكُونُ مَوَادُّ عِلْمِهِ مَعَ الْحَقِّ بِلا سَهْوٍ وَلا غَفْلَةٍ . بَلْ حُكْمُ حَقٍّ جَرَى عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ .» [1].

وقراءةُ البيان البشري المَحضُ إنّما هي قراءةُ الإنسان السّوي :

الإنسانُ السّويّ إنْ هُو خاطبك ، فإنّما أَذِنَ لك أن تقرأَه . قد وضعَ في يدك مفاتح مغاليق قلبِه ، مثلما أذنتَ أنتَ لـه حـين أصـغيتَ إليْـه أن يتولَّجـك وأن يغزوَك ، وأنْ يفعلَ بكلمته في فؤادك ما يُريد .

وتلك خطورةُ الكلمة مقولةً ومسموعةً ، وما تهـاون النَّـاسُ فِـي شـيْءٍ ممَّـا يملِكون تهاونَهم في الكلمة . إنّ الإنسان لظلومٌ كفَّار .

الشّيخُ هو الحفيُّ بالكلمـة يتلقّاهـا ، ويُحسِـن اختيـارَ مَـن يتلقاهـا مِـنهم ، ويلقِيها في الفؤاد نورًا يُضِيءُ حناياه ، وسيفًا يبتُرُ به منه عوائقَ الحقّ .

وأنتَ تُبصرُ مقالَ الشَّيخِ في الكلمةِ الّتي يَسمعُ أو يَقـرأُ تكـادُ تَـراه يَتلقاهـا بكلِّ مُدركاتِه : يتلقاها بِسمعِه ، وبَصرِه وشمّهِ ولَمسِهِ وذَوقِـه النّفسـيّ والعقلـيّ والقلبيّ والرّوحي ولا سيّما حين تكون الكلمةُ من أفق الوحي قُرآنًا وسنّة .

ومن ثَمَّ ترَى الأبعاد الجمالية المكنونة في الكلمة الَّتي يقرأُ والتي يسمعُ قد تكشفت له ، فبسطَ تلك الأبعادَ لسَامِعيهِ وقُرّائِهِ .

ذلك أَنّ الكلمةَ الّتي اصطنعها قلبٌ مُعافَى مِن نـواقضِ الآدميّـةِ في صَـاحبها إنّما هي ضَريعُ المرأة المُسلِمة : لا تكشفُ عن شيْءٍ من معالمِ حسنها إلا لِمَن ملكَ الحقّ في أن يُكشف له بعضُ هذا الحسنِ أو كلّه ، ويكـون كشـفُه حينئـذٍ تعبّدًا . الكلمةُ المحرّرة كذلك .

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين . تـأليف : ابـن قـيم الجوزيـة : محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد(ت : ٧٥١هـ) تحقيـق : محمـد المعتصـم بـالله البغدادي . ط(٣) عام : ١٤١٦هـ . نشر : دار الكتاب العربي ـ بيروت . ٤٥٢/٢

ومِن ثمَّ تجدُ كلّ كلمةٍ نبيلةٍ هِي التي لا تمتَنع مِن أن تبذلَ للشيخِ حسنَها ، وإحسانَها إليه جزاءً وفاقًا لإحسانِه إليها .

والشيخُ حاضرٌ في قلبه وصنيعه مقالة أبي حمد الخطابيّ (ت : ٣٨٨هـ) فأَمَّا مَن لَم يرضَ مِن المعرفةِ بظاهرِ السِّمةِ دون البحثِ عَن باطنِ العِلّة ، ولم يقنع في الأمر بأَوائل البرهان حتَّى يَستشهدَ لها دلائلَ الامتحانِ ، فإنَّه يقولُ إن الّذي يُوجدُ لهذا الكلامِ مِن العُذوبةِ في حسِّ السّامعِ ، والهَشاشةِ في نفسِهِ ، ومَا يتحلَّى بِه مِن الرَّونقِ والبَهجةِ الَّتي يُباينُ بها سائرَ الكلامِ حتَّى يكونَ له هذا الصَّنيع فِي القُلوبِ ، والتَّأثيرُ في النّفوسِ ، فتصطَلحُ من أجله الأَلْسُن على أنه كلام لا يشبهه كلام ، وتَحْصَرُ الأَقوال عن معارضته ، وتنقطع به الأَطماع عنها ، أَمر لا بد له من سبب ، بوجوده يجب له هذا الحكم ، وبحصوله يستحق هذا الوصف »[١].

وحاضرٌ في قلبِه وصنيعه مقالةُ عبد القاهر : « لا يكفي في علمِ « الفصاحةِ » أن تَنْصُبَ لها قياساً ما ، وأن تَصِفها وصْفاً مُجْملاً ، وتقولَ فيها قولاً مُرْسَلاً ، بل لا تكونُ مِن مَعرفتها في شَيءٍ حتى تُفصِّل القولَ وتُحصِّلَ ، وتضعَ اليدَ على الخصائصِ التي تَعْرِضُ في نَظْم الكَلِم وتَعُدُّها واحدةً واحدة ، وتُسمّيها شيئاً شيئاً ، وتكونُ معرفتك معرفة الصنع الحاذق الذي يعلم علم كل خيط من الإبريسم الذي في الدِّيباج ، وكلَّ قطعةٍ منَ القِطَع المنجورة في الباب المقطع ، وكل جرة منَ الآجرِّ الذي في البناء البديع »[٢]

كان صنيعُه مع فقه خصائصِ البيانِ النبوي في هذا الكتاب مطيَّةً إلى فهم

---

(١) بيان إعجاز القرآن تأليف أبي سليمان الخطابي (م . س) ص : ٢٥، ٢٦

(٢) دلائل الإعجاز : ص ٣٧ فقرة ٢٩

ما يحمله هذا البيانُ من مقوماتِ صِناعة الإنسانِ الصّالحِ المُصلِحِ ، كما أشرتُ قبل في البعدِ الإصلاحيّ .

إنْ أردتُ أن أضعَ بينَ يديك هذا الّذي أبصرته في قراءته أحاديثَ من صَحيحِ مسلمٍ كان الأمر متكاثرًا تكاثرًا يُقيمني في الحيرةِ الّتي لا مخرجَ لِي منها إلا الاحتماءَ بضِيق المقام عَن البَسطِ .

* * *

ولعل الأولى بأن أستفتح به عنايةُ الشيخِ بإبرازِ معالمِ البلاغةِ النّبوية ورسم حِليَتِها : ممّا يحتفِي به العقلُ البلاغي في قراءته وتذوقه أيَّ بيانٍ عالٍ أن يرصُدَ من خلالِ تفرُّسِ البيانِ ومفاتشته والانديـاح في تجاويفه وسراديبه معالمَ ما يُمكِن أن نسميَه السُّنة البيانية (الإفهامية) لِصَاحب هذا البيان ، فلكلّ بليغٍ خصائصُه البيانيّةُ التي ترسُم معالم شخصيته بليغًا ، فمِن الأُسُسِ الكُليّة أنَّ للبليغِ منهاجَ إبانةٍ يُنسَج على منوالِه ، وسنة بيانية يتعبّدُها .

إنَّ كلَّ بليغٍ بيانُه وليد عقلِه وقلبه ، يجري على لسانِه ، ولأولي البَصائرِ النّافذِة في البيانِ ولأمراءِ مَهارة التَّلقِّي والفَهم قُدرةٌ على الاستِكشَافِ المُبينُ من بيانِه .

والنَّاقدُ البَصيرُ مُقتدرٌ على أنْ يتبيَّن الشَّاعِرَ مِن شِعره ، وأنْ يفصلَ في قضيّة تَوثيقِ النّصّ لِصانعِه .

وكذلك أنت واجدٌ علماء البيان النّبويّ لهم قدرة عالية على نقد متن الحديثِ، يتبين لهم وثاقة رفع هذا البيان لِمقامِ النّبوَّة أو عدم وثاقتها،وهو بابٌ من العلم، لا يتوقفُ على الجانبِ الكسبيّ من العلومِ ، بل لا بُدّ أن يَمتزجَ بهذا الجانبِ الكسبيّ جانبٌ وهبيٌّ هو أقربُ إلى الفراسةِ ، فكأنَّ صَاحبَه من طول المُخادنةِ

العقليَّةِ والنّفسيَّةِ والسُّلوكيَّةِ لبيان النُّبوّة تلمَح بَصيرتُه مَدَى حُضورِ نُورِ النُّبوّةِ في البيان[1].

الشَّيْخُ حَفيّ بِلفتِنا إلى المعالمِ الكُبرَى لِمنهجِ النّبوّة فِي الإبانَةِ عَن المَعـانِي ، مشيرًا إلى الباعثِ علَى سُلوكِ هذا المَنهجِ فِي الإبانةِ عَن المعاني .

وممَّا هو أصلٌ في هذا اليقين بأنَّه لما كانت البعثة المحمّدية رحمةً للعالمين ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧)[2] كان من مقْتضيات

---

(١) جرت دراسات عديدة في هذا الباب منها :

« جهود المُحدّثين في نقد متن الحديثِ النبوي . تأليف محمد طاهر الجوابي ، نشر وتوزيع مؤسسات محمد بن عبد الكريم بن عبد الله بتونس . ط(١) ١٩٩١م

« مقاييس نقد متون السنة . تأليف . مسفر بن غرم الله الدميني . الرياض ـ السعودية ـ ط١ ، (١٤٠٤هـ)

(٢) جاءت هذه الآية في رأس المعنى القرآني وشرفه في سورة معقودة لـذكـرالأنبيـاء ، وما كانت رسالتهم قائمة عليه ، وقد استفتح البيان بأبي الأنبياء عَلَيْهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ : سيّدنا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ وختمه بمريم وعيسى عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ . ولم يَكن نسقُ ذكرالأنبياء في السُّورة على وفق نسق أزمانهم بل من وراء ذلك حكمة نحن نفتقرُ إلى أن نحوم حول حماها .

ولمَّا جاء ذكر سيّد الأنبياء قال هذه الآية : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧) دلالة على أنّه إذا ما كان كلُّ نبيّ هورحمة لمن كان في زمانِه حتى يأتي نبيّ آخر ، فإنك أنت الرّحمة للعالمين كلّ العالمين حتى يدخل أهلُ الجنةِ الجنةِ وأهل النار النار ، فما من أحدٍ من العالمين إلا وله نصيبٌ من الرحمة التي حملها إرسالك .

وفي هذا إنباءٌ بأنّ مَن لمْ يأخذْ بنصيبه من تلك الرّحمةِ فهو الغابنُ نفسِه الظالمُها ، وليس أحمق ممّن يغبِن نفسه ويظلمَها ، فهو لغبن غيره وظلمه أشدُّ وأعظمُ . فهو الأجدرُ بالفرار منه ، فمَن حام حولَه فقد ظلم ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (هود:١١٣)

ذلك أنْ يكون بيانه بيانًا لا يسْتغلق على أحدٍ من العالمين أن يتبصر فيه منهجَه وطريقه إلى مرضاة ربه سُبْحانَه وبِحمدِه ، فبيانُه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ لكلّ عصْرٍ ومصْرٍ وجنْسٍ حتى يَرثَ اللهُ تعالى الأرضَ ومن عليْها ، فلا يكون زمانٌ أوحالٌ إلاّ وله في بيانِه غذاءٌ وشفاءُ ، ومخرجُ ممَّا يرادُ الخروجُ منه مِن الباطل والشّرّ والضُّرّ ، ومَدخلٌ في ما يرادُ الدُّخولُ فيه من الحقّ والخير .

وعلى من شاء فهم عالمية بيانه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ أن يفتش فيه عما هو جوهريّ يجمعُ ولا يفرقُ ، يسوق العباد إلى الغاية ، ولا يشتتهم في السّبلِ . فيجِدُ كلُّ متبصّرِه أنّه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ يُخاطبه هو في عصرِه ومصرِه ، ولو كانت طلاقاته التخيّلية فتِيّة صادقة لكان بِملكه أن يراه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ في عقلِه قائمًا يخاطبه ويشيرُ إليه وعليْه ، فلا يستوحش ، ولا يطلب غيرَه مخلصًا وهاديًا ومُنقّذا .

يقُول الشَّيْخُ : « لمَّا اقتربتُ مِنْ كلامِ سيّدنا رسُولِ الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ بالتحليلِ وجدتُ كَلامَهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كأنّه يقُولُه لنا بعدَ ما رأى الَّذي نحنُ فيه ، وأنّه عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كان يضعُ الدّواءَ لأدوائنا ، وكَأنَّه بيْننا وينادِي فِينا بِما يُخلصُنا من الأهوالِ المُحيطةِ بِنا »[1]

---

(١) حرَى أن نفرق بين الموقف من الحقيقة : الإسلام هوالنور هو الحلّ هو الكهف ، والموقف ممن يتخذ ذلك شعارًا ، فيتعثرُ في تحقيقه أو يضلّ سواء كان ضلالَ مبعثٍ أو مسلكٍ .
مناهضة من ينهض لهذه الحقيقة بدعوَى أنّه يتاجرُ بها أو يتستر تحتها لايجب أن يُتخذ ستارًا لمناهضة الحقيقةِ نفسِها ؛ ، لأن مناهضتها إنما هي مناهضة الوحي قرآنًا وسنة . وذلك هو الكفرُ البواح .

وهذا من الشَّيخ فوقَ أنَّه يحملُ نورًا يضِيءُ السَّبيلَ لمن أرادَ المَنْجَى ، هو يُنْزِلُ سيْفًا على أعناقِ أولئك الَّذين يتربّصون بالحقيقة الّتي لا تقبلُ نقدًا ولا نقضًا ؛ لأنّها الحقُّ المطلق : الإسلام كما جاء به بيان الوحي قرآنا وسنة هُو النّور وهو الحلّ لكلَّ مُعضلةٍ في كلّ مجالٍ من مجالاتِ الحياة،وهو المخلّص، وهو الكهفُ ، وهو الغيث ، وهو السبيل والمنهاج إلى كلِّ ما يريدُه كلُّ عاقل لنفسِه وقَومه ووطنِه ، فمَن توقفَ في ذلك ، فأهلٌ لأنْ يُجاهد بما يليقُ بحالِه ، فكيف بمن تردَّد أو رَدَّ ، فكيف بمن عاند وعادَى ؟!!!

ومن ثَمَّ أكّد شيخُنا أنّ من خصائصِ هذا البيان النَّبويّ أنّهُ ممسكٌ دائمًا بالجوهرِ الذي هوأقربُ إلى فطرةِ الأشياءِ ، وليسَ مُمسِكًا بالعرضِ المتغيّرِ ، فحديثُه عليهِ السَّلام عن الرجلِ الذي « الخيلُ له أجرٌ » كان ممسكًا باللبِ الذي هو الدّفاعُ عن الأمةِ ، وليست الخيل إلا وسيلةً من هذه الوسائلِ المتغيرة ، وهكذا . . .

فبيانه إنّما هو للأجيالِ كلّها في الأزمنة كلها ، وفي الأمكنة كلها[1] وما كان كذلك لا يستقيم له أن يشغل بما هو عرضٌ ، لأنّه متغيرٌ والأجيال والأعصار والأمصار متغيرة ، فاقتضَى عمومُ الرّسالة وخلودُها ألا تشغل بما يُمكن أن يكونَ في قومٍ أو زمانٍ أو مكان دون غيرِه . فكان بيانُه مطابقًا لمقتضَى الغاية التي كان لها ، ومطابقًا لحال من يُخاطبُ بهذا البيان . ومطابقًا لحالِ البيانِ نفسِه من أنَّه بيانٌ خالدٌ سابغٌ مُحِيطٌ بأمّته كلّها في كلِّ عصْرٍ ومِصْرٍ[2]

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ٦١٢/٢ .

(٢) البحثُ عن معالمِ هذه المطابقة في بيانِ النبوة مما نحنُ مفتقرون إلى الوفاء ببعضِ حقه في دراساتنا ، ولا سيّما مطابقة حال عمومِ الرسالةِ وسبوغها العالمين . فالبحثُ عن عوامل اتساع دلالة بيانه لما هو حاجات كل عصر ومصر وجنسٍ من العمل الحميز اللذيذ الذي يستْشرفُ له الفحول من طلابِ العلمِ .

كذلك استخرجَ الشَّيخُ حِليةَ البيانِ مِن جوهرِ رسالتِه ، وكأنَّ الشَّيْخَ يُعلِّمنا أن الإبانةَ عَن مَكنونِ الصُّدورِ وإيصالَه إلى القلوبِ ليْس عمَلاً عَفويًّا تصوُّرًا وتصويرًا ، بَلْ هُو أقربُ إلى أن يكونَ غزوًا للصُّدور أو تدسُّسًا في القلوبِ المغلقة الأبوابِ ، ومثلُ هذا يَستوجِبُ مِن صَاحبِهِ أن يُعِدَّ العُدّة للوفاءِ بحقِّ هذا العملِ : يستوجبُ أنْ يكونَ البيانُ في بنائِه وتشكيلِه ومستوَى دَلالتِهِ وما يحملُه مِن المعاني متوائمًا ومتآخيا مَع مَن نصنع لهم هذا البيان ومع الغاية التي يصنع البيان لها ، وهذا لا يكون إلا إذا كان المُبين قد وقف على حال من يُخاطبه وعلى طبيعة الرّسالةِ التي يريدُ إيصالها إلى قلبه ، فالبيانُ عملٌ شاقٌّ ، وليس مجرَّد خُطور معنى في القلبِ ، وإطلاق اللّسان بالألفاظِ ، إنَّه تخطيطٌ وتدبيرٌ وإعدادٌ . ولذا يستغرقُ الكلام البليغُ في مرحلةِ إعدادِه وتصوُّره في النَّفسِ أضعافَ أضعافَ ما يستغرقُه في مرحلةِ تصويرِه وجريانه على اللسان .

يقُول عبد القاهر : « وأنَّك تَتوخَّى الترتيبَ في المعاني وتُعْمِلُ الفكْرَ هناك ، فإذا تَمَّ لك ذلك أتْبَعْتَها الألفاظَ وقَفَوْتَ بها آثارَها ، وأنَّك إذا فرَغْتَ من ترتيبِ المعاني في نفسِك ، لم تحتجْ إلى أن تستأنفَ فكْراً في ترتيبِ الألفاظِ ، بل تَجدُها تَترتَّب لك بحُكْم أنها خَدَمٌ للمعاني ، وتابعةٌ لها ، ولاحِقةٌ بها ، وأن العِلْم بمواقعِ المعاني في النَّفُس ، علمٌ بمواقعِ الألفاظ الدَّالة عليها في النّطق »[1]

* * *

وممّا يلتفنا إليه من معالم حلية بيان النبوة أنّه لما كانت رسالة النبوة التبليغ وإيصال الهدى إلى القلوبِ إعذارًا لكلِّ من يسمعُ استوجب هذا أن يجري البيان على منهاج يُحقق هذه الرِّسالة . من معالم هذا المنهجِ جريان المعاني الرئيسة المَركزيّة على منوالٍ واحدٍ أوعلى أكثر مِن مِنوال متقاربة أو متلاحظة .

---

(١) دلائل الإعجاز : ص : ٥٤ فقرة : ٤٧

يقول الشيخُ : « قُلتُ إنّ بلاغةِ بلاغِ رسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ فيها عنصرٌ بالغُ الأهميّةِ طالما أغفلناه ، وهُو عرضُ بيانه عليه السلامُ فِي صُورةٍ يسهلُ معها ، وبها حفظُ بيانِه ، وبلاغِه ، ومن أهم البلاغِ أن تيسر حفظه ، وتيسّر ذكره .

وقد نبهتُ إلى ذلك في حديثِ « لا ألفين أحكم يجيءُ يوم القيامةِ . . » ورأينا أن تكرارَ الفقراتِ التي بُني عليْها الحديثُ كان مِن أهمِّ أسبابِ تيسيرِ حفظِهِ مَع اختلافِ المعنَى ، وتنوعها ، وأنّ تكرارَ الصّيغِ والجُملِ والفقراتِ لَم يكنْ تكرارًا فِي المعنى ، وإنّما هو تكرارُ المنوالِ الغالبِ الذي بُنيت عليْه المعانِي »[1]

ويمضِي الشَّيخُ لِيقرِّر كُليةُ تتمثَّلُ في قوله : « اعلم أنَّ البيان يتشابَه كما تَتشابُه الوُجوه ، وتتغايرُ كما تتغايرُ ، وقد رأيتُ ذلك في الشِّعرِ . . . فإذا انتقلتُ إلى الكتاب العزيزِ وجدت عالمًا آخر من التَّشابُهِ والتّغايرِ ، ووجدت فواتح السّور كأنّها رموزٌ وإشاراتٌ إلى ضروبٍ من التَّشابهِ . . . ومِن هذا الَّذي راقني وراعنِي أنّي أجدُ السُّورتينِ تبتدئان بكلمةٍ واحدةٍ مُفردةٍ ، وكأنَّها غمزةُ عينٍ خاطفةٍ توجّهك إلى أختها كما نرى في (اقترب) التي بدأتا بها « الأنبياء » : ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾ (الأنبياء:١) وابتدأتْ بِها « القمرُ » ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴾ (القمر:١)

وأنا أشيرُ إلى التّشابهِ البعيدِ متجاوزًا ما ذكره علماءُ التَّشابُهِ اللّفظِيّ والرَّوابط الّتي بيْن السُّور المبتدئة بـ« الحمد » أوالسّور المبتدئة بـ« حروفِ المعجم » أو السّورِ المبتدئة بحروفٍ واحدة من المعجم مثل « الم » إلى آخره .

وأزعُمُ أنَّ هذا الحقل مِن حُقُولِ معرفةِ البيانِ لَم يُدرس لا فِي الشعرِ ، ولا في القرآن ، ولا في كلامِ رسُولِ الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ ،

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٥٦٥/٢

وقد درسْتُ «آل حم» فِي أربعةِ مُجلدات ، وظهرَ لِي أنّها بِمثابةِ سُورةٍ واحدةٍ ، وأنَّ قصصها جاءَ علَى نسَقٍ واحدٍ مِن التّرتيبِ إلى آخره»[1]

مِن المُهمّ الالتفاتُ إلى أنّه إذَا ما كانت هنالك كُليات قائمة في بيانٍ ، فإنّها أجدرُ بأن تكونَ محلّ مباحثة وتفتيشٍ ، وأن تُبسط فيها البحوثُ الجادة ؛ لأنَّها كليّة تشكّل محوراً رئيسًا تتلاقَى عليه فنونُ البيان في مستوياتٍ عديدة .

أنتَ تجدُه فِي الكلمةِ الإنسانِ شعراً ونثراً ، وفي الكلمةِ الرّسالةِ ، وفي الكلمةِ القُرآن . وما كان كذلك كان جَديراً بأن يُحتفَى به ، وأن تحتفلَ الجُهودُ الجادّة الفتيّة للوفاءِ ببعضِ حقّه . فحُسنُ البَصرِ به في فنّ يَصلحُ أن يكونَ مِفتاحًا لحُسن البصرِ به في فنٍّ آخرَ .

إنَّا إنْ أحسَنا بصرَه في الكلمةِ الإنسان ، فإنَّه لا محالة سيُعِينُنا هذا على مقاربة إحسان البصرِ به في الكلمة النُّبوة ، ثم في الكلمة القرآن .

ومن العَلِيِّ في اكتسابِ المهاراتِ في التَّلقّي والفهمِ أن يبدأَ المرْءُ بإتقانِ مهارة التّبصر والفهم لما هو كليّ في أنواع البيان ، سواءٌ كان بيانًا بشريًّا محضًا أوكان بيانَ نبوةٍ أو كان بيانَ قرآن ، ذلك أنَّ مِنهاجَ البيان النَّبويّ والبيان القرآنيِّ لم يفارق البيان الإنسانيَّ مفارقةً كامِلة ، بحيث لا يلتقيان ، فَذلك يؤدِّي إلى استحالةِ أن يُحسنَ النَّاسُ تلقي بيانِ الوحْي أو إلَى تَعسُّر تلقيه ، والله سُبْحانَه وبِحمدِه يقُول في سورة القمر أربع مرات : ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ (القمر:١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠)

ومِن سُبلِ تيسِيره أن جاءَ به على مِنوال مقاربٍ لمنوالهم في الإبانة ، فلم يخرق منهاجهم في بناء المعنى وصورته ، فإعجازه البيانيّ لا يتمثلُ في أنّه خرق سنتهم البيانية في بناء صُورة المعنى ، وإنما في اصطفاء السَّبيل الأكمل في هذا البناء ، وعصمة هذا البناء عن أن يحوم حوله أدنى خطإٍ أوضعف ،

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢/٢٦٦-٢٦٧ ، وانظر معه : ٢/٥٨٧ ، ٥٩٣

أو يكون في شيْءٍ منه ما غيره أولى به كَلِمًا مفردًا أو تركيبًا ومنهاج تصوير ودلالة وإفادة، أو أن يوضعَ في سياق آخر، فيجري فيه كجريانِه فيما كان فيه. فكلُّ كلمةٍ أوجملةٍ أو آيةٍ وما فوق ذلك لو نُزع من سياقه وأقيم هو في سياق قرآنيٍّ آخر لتبين عوار ذلك الفعل لكل ذي بصيرة.

* * *

وممّا هو قريبٌ من هذا في بيان حلية بيان النُّبوّةِ أنَّ هذا البيانَ ينسجُ على نهج يُعين على الحفظِ، وهو من عوامل خفةِ بيانه ونعمومة بيانِه وقربِه من القلوب والعقول على نحو ما تراه فيما يُعرف عند البلاغيين بـ« مراعاة النَّظير » فذلك كثيرٌ في كلام النّبوّةِ وكذلك هو مع تعدّده متنوعٌ في صُورِه، جمع بين كثرته وتنوعه في صوره، وفي مستوياتِ تحققه، فلم يقتصر فيه على مستوى تناظر الكلم، بل تجاوز ذلك، فأنت « تجدُ رحمًا جامعةً لكثيرٍ من كلامِه، وهي رحمٌ موصُولةٌ غيرُ مقطوعةٍ، وكأنها صُورة لقلوبِ أمّتِهِ، فتآلفتْ، ومن العجيبِ أن تَجِدَ التَّآلفَ فِي اللبِناتِ الّتِي بُني مِنها البيانُ الّذِي يَدعُوالأمّةَ إِلَى أن تَتَآلَفَ وَتتقاربَ، وتَتسَاندَ كَما تَألَفَتْ هَذِهِ الكلِماتُ وتَقَارَبَتْ وَتسَاندتْ، وهذا مِمَّا يُمكنُ أنْ يَكونَ مِن تصاقبُ المبانِي لتصَاقُبِ المعَانِي، وكُلّما غَلغَلتَ النّظرَ فِي كَلامِهِ صَلّى الله عليْهِ وعلَى آلِه وصَحبِه وسلّم تسليمًا كَثيرا وَقعتَ عَلَى خَبايا فِي الزّوايا »[1].

ويقرّرُ الشيخ سِمة بناء بيانِ النّبوّة على نهجٍ يُعينُ على حفظِه وحضورِه في القلبِ لِيحقق رسالته، وهو بصدد قراءة الحديث القُدسيّ : « ياعبادِي إنّي حرمتُ الظلم على نفسي » فيلفتنا إلى « أنَّ المعانِي الّتي يراد لَها أنْ تَشِيعَ فِي الأمّةِ، وأن تكون أصلاً مِن أُصُول ثَقافتها يلاحظُ فيها التيسير »[2].

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢/٦٧٢، ٦٧٣

(٢) المرجع السابق : ٢/٦٩٠،٦٩١

فهذا من فيضِ رأفةِ رسُول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ بالأمّةِ ، وهو تطبيقٌ عملي لهديِه صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ في باب التيسير والتبشير .

روى الشيخان البخاري في كتاب (العلم) و(الأدب) ومسلم في كتاب (الجهاد والسير) من صحيحهما عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ «يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا ، وَبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا».

وإيراد البخاري لهذا الحديث فِي باب (العلم) من دقِيقِ فقهه ، فكان من تيسير رسول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ في العلم أن يجعل العِبارة عنه سهلةً يسيرة الحملِ والفقهِ ، فلم يُعرف عنه الإغراب على عظيم اقتداره ، وكان يخاطبُ كلا بما يفهمُ رحمة بهم .

* * *

ويلفتنا الشيخُ إلى خاصّة من خصائص بيان سيّدنا رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ لا تجاوز إدراكها عين أوأذن ، وإن تجاوزتْها القلوب فقهًا لحكمتها : خاصة «التكرار».

يلفتنا في تبصره ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة في كتاب «الإمارة» من صَحيحه «لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِىءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ ....» الحديث . . إلى ما بُني عليْه بيانُ النّبوّة هذا الدّاء المُبيرِ الّذي يتسلل إلى قلبٍ أخرجَ صَاحبه إلى الجهادِ في سبيلِ اللهِ سُبْحانَه وَتَعالَى ، الذي هُوَ آيةُ الرَّغبةِ فيما عندَ الله تعالى ، والرغبة عن متاع الحياةِ الدّنيا وبرغْم من ذلك بُلي هذا القلبُ بهذا الدّاء الذي منزعه الرّغبة في عرضٍ زائلٍ من الدنيا ، فيغلّ قليلاً ممّا لو صبرَ كما صَبر في جهادِه لكان هذا الذي غله وفوقَه في يمينه كريمًا مباركًا .

وكأنّي بهذا الدّاء الذي يُبين عنه رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ آتٍ من قبلِ وهن رسُوخ الإيمان في ذلك القلب واستقراره فيه وتمكنه

منه . فالقلبُ الَّذي يتأثرُ بذلك وهو الذي رغب في أن يترك الحياة كلَّها من أجل ما عندَ الله سُبْحانَه وَبِحمدِه كيفَ بَه يضعُفُ إلى هذا الحدِّ ؟!!!

كأنّي بالإنسان من ضَعفه تعتريه متناقضات ، ممّا يجعله شديد العَوز إلى ما يذكره بها ، ويضع بيْن يديه دواء هذه المتناقضات .

بيان النّبوّة هنا جاء مصورًا خطورة هذا الداء ، ولما كان داءً عضالاً كان قمنًا أن يُعني في تصويرِه بما هو الأقدرُ على اقتلاعه . فجاء البيان النبوي بأسلوب « التكرار » .

وفي إعراب البلاغيين عن هذا الأسلوب بمصطلح « التكرار » فيه ما ليس في« الترديد » أو« الترجيع » أو الإعادة ، ونحو ذلك .

في مصطلح « التّكرار » لفتٌ إلى ما هومنسول منه « الكَرّ » وفي الكَرّ معنى ليس في « الرّد » أو العَود أو الرُّجوع : في الكَرّ معنى العزم الصّادق والقوة الفاعلة والإصرار على النفاذ والبراءة من السآمة والملل .

في « التكرار » طرقٌ متوالٍ على المعني وتقريرٌ له وترسيخ وتوطين في السَّمعِ والقلبِ . وفي الحفاظِ على ما يصك الأذن على ما هو عليْه لفتٌ وتنبيهٌ إلي أنَّ هذا المكرور بِه (المعنى وصورته) هو مناط العناية ، بخلاف تصريف المعاني . في التّصريف تنوّع ، ولفت إلى أمرين رئيسين :

الأول : أصل المعنى ، **الآخر** : ما في تنوع صورة المعنى من عطاءات هي محل القصد ، بيْنما التكرار فيه لفتٌ إلى أصل المعنى ولوازمه القريبة المأخوذة من صُورتِه أمَّا لوازمه البعيدة المأخوذة من سياقاته في الرُّتبة التَّالية من القصد ، فكلُّ تكرار فيه معان هي منسولةٌ من الصُّورة المكرورة ، وفيه معان من السّياق هي أقرب إلى « مسْتتبعات التراكيب »

في التكرير لفتٌ إلى العناية بأصل المعنى ولوازمه القريبة المنسولة من التركيب التي يُطلق بعض البلاغيين على طريق الإنباء عنها « الدلالة » أمَّا

المعاني التي هِيَ لوازم بعيدة التي يعربُ بعضُ البلاغيين عن طريق الإنباء بها بـ «الإفادة» فهي في المرتبة التالية من القصد .

أُشيرُ هنا إلى أنَّ البيان المكرور ليس مُتطابقًا مَع أوَّله تطابقًا كاملاً في الصُّورةِ وأصلِ المَعنى،وفِي المَعانِي اللَّوازم قريبها وبعيدِها «مَدلولِها ومفادها» بلْ فيه مِن التَّنوع في المَعاني المُفادةِ بالسّياق «الإفادَة : اللّوازم البعيدة» وهذا مَا جعل بعضَ أهلِ العلم لا يرَى في البيانِ تكرارًا كاملاً . بلْ لا بُدَّ مِن شيْءٍ من التَّنوّع في المعاني اللّوازم البعيدةِ . فتغيُّر موقِع الجُملة المكرُورة يُلْزمُها أن يكونَ فيها ما يتواءَم مع مَوقِعها الجديد . . . .

يقولُ شيْخنا : «هذا الحديثُ مكوّنٌ مِن أحدَ عَشَرَ سطرًا ، يُمكنُ حفظه عند قراءته أوْ سَماعِه أوَّل مرّةٍ ؛ لأنَّ تكوينَه البيانيّ مؤسّسٌ على تكرارِ فقراتهِ تكرارًا كاملاً ، وكلّه تقريبًا ناتج مِن تكرارِ «لا ألفين أحدكمْ يَجيءُ يومَ القِيامةِ على رقبتِه ... يقُول : يارسُول اللهِ : أغثني . فأقُولُ : لا أملكُ لك شَيْئًا . قد بلغتك»[1]

---

(١) كأنّي برسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ، وهويخبرُ بأنه سيقول له : «لا أملك لك شيئًا» يلفتنا إلى أنّه عبد لله تعالى لا يملك من أمره شيْئًا ، فمن يريد الغوث فمن خالقِ الغوثِ،وليس من النبيّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ وإن كان سيد الخلائق ، فأولئك الذين يسْتغيثون برسول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ راغبين عن الاستغاثة بالله تعالى من المتصوفة المبتدعة ، هم بيْن أمرين :
الأول : أنهم يسيؤون الظن بالله تعالى ، فيدعون الاستغاثة به إلى الاستغاثة برسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ على الرّغم منْ أنّه هو صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ يسْتغيثُ بربِه سُبْحانَه وتَعالَى فاعجب لمسْتغيثٍ يُسْتغاثُ به..
والآخر : أنّهم على سنن ﴿ **وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ** ﴾ (الزمر:٣)
وفي قول الرسول له (قد بلغتك) إبانة عن كلّ ما هو مكلف به ، وما هو مستطيعه : إبلاغ مرادِ الله الشرعي أمرًا ونهيًا إلى الأمّة .

هذا هوالحديثُ ، وهذه كلماتُهُ الّتِي تكررتْ معَ إضَافةِ الشّيْءِ الّذي غَلّه . . .

وهكذا تراك حفظتَ الحديثَ من أوّل مرة معَ أنّه منْ أرفعِ صُور البيان ومع أنّه من أهمّ الأحاديثِ فِي حرمةِ الأموالِ والدماء . . . .[1]

« وقدْ قلتُ : إنَّ تكرارِ هذِه الفقر ، وبناء الحديثِ عليْها يجعلُ حفظها أمـرًا ميْسُورًا ، وَيُسْرٌ حفظِها مِنْ تَمامِ بلاغَتها ، ؛ لأنَّها تحصّنُ أمـوالَ النّـاسِ ودمـاءَ النّاس ، وغرسَ هذه الفقراتِ فِي النّفوسِ يُغنِي فِي أمن المُجتمعِ عَـن جحافـلِ جنودِ الأمن التي تنتشرالجرائمُ معَ وجودِها ، وزرعُ هذه الكَلمات فِـي القلـوبِ لا حدودَ لآثَارِهِ الطّيبةِ عليّ وعليْك ، وعلَى كلِّ منْ يعيشُ فِي هذا المجتمع .

وإذا جمعنا المعانِي الّتي تكررتْ وجدنا لَها شأنًا فِي حياة الناسِ أيّ شأن . وكَذَلِك المعَانِي التِي تكرّرَتْ فِي كتابِ اللهِ تعـالى ؛ لأنّـه مـا تكـرّرَ شَـيْءٌ إلا ليتقرّرَ ، وما تكرّرَ شَيْءٌ إلاَّ وَلَهُ شَأنٌ عِنْدَ الله تعالى ورسُولِه ﷺ .

وإذا كان مِنْ الواجبِ أنْ نعرفَ مَا لَهُ شَأنٌ عِندَ الله تعالى ورسُـولِهِ ﷺ فمِـنَ الواجبَ أنْ نجمعَ ما تكرّرَ فِـي كـلامِ اللهِ وكـلامِ رسُـولِهِ ، وأنْ نضَـعَ الحـديثَ بِجوارِ القرآنِ ما اتّفقَ وَما اختلفَ .

وكنْتُ وما زلْتُ أجدُ الْجمـلَ الّتِـي تكـرَّرتْ فِـي المُصـحفِ مِـن الكَلِمـاتِ الجامعةَ لأصُولِ الدين . . . .»[2]

---

(١) قوله : « معَ أنّه منْ أرفعِ صُور البيان ومع أنّه من أهمّ الأحاديثِ فِـي حرمـةِ الأمـوال والدماء» يلفتنا إلى أن ما كان هذا شـأنه فظاهر الأمر أن يصاغ علـى نحـو آخـر قـد تكون فيه حزونة في حفظِه ، ولكنَّ بيان النبـوَّة يخـرق المعهـود ، ويتجـاوز المـألوف والمتوقع ، فيدهشك بما عدل إلَيْه لنفاذ بصيرتِه فيما هو الأوفق بحال المعنى ، وحـال متلقِيه . ومثل هذا لا يتحقق على كماله لغـيرِه صَـلَواتُ اللهِ وسَـلامُه عَلَيْـهِ وعَلَـى آلِـهِ وَصَحبِهِ .

(٢) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢/٥٥٤، ٥٥٥

قول الشّيخ : « وغرسَ هذه الفقراتِ فِي النّفوسِ يُغنِي فِي أمن المُجتمعِ عَن جحافلِ جنودِ الأمن التي تنتشر الجرائمُ معَ وجودِها ، وزرعُ هذه الكَلمات فِي القلوبِ لا حدودَ لآثَارِهِ الطّيبةِ عليّ وعليْك ، وعلَى كلِّ منْ يعيشُ فِي هذا المجتمع » يلفت إلى ما ابتلي بِه القائمون على الشأن العامّ لهذه الأمّة في عصرنا هذا من الغفلة عن السبيل القويم في تحقيق الأمن لهذه الأمة ، لأن عُظمهم قد سطا على مقعد الولاية ، وهو غير أهل لأن يقوم بما ألقَى بنفسِه فيه .

لو كانت له بصيرة لأدرك أنَّ أمن الأمة من داخلِ قلوبها،وليس من خارجها، حصن المرءِ والأمّة في ما في قلوبها . من مراقبة الله تعالى ، وليس في ما في خارجها من مراقبة لشُرَطٍ آخذةٍ بأيديها سياطًا كأذناب البقر يُرهبون بها الضعفاء ويحمون بها المنتهبين ، وينفق عليهم من بيت مال المسلمين ما لوأنفقَ معشارَهُ على تعليم النّاسِ أدب مراقبة الله سُبْحانَه وبَحمدِه في جميع أمرهم خلاءً وجلاءً لكان لها من الأمن أضعاف أضعاف ما يرغبون فيه من أولئك الشُّرَط التي باتت هي مصدر الهلعِ والظلمِ للنّاس .

وهو بقولِه : وإذا كان مِنْ الواجبِ أنْ نعرفَ مَا لَهُ شَأنٌ عِندَ الله تعالى ورسُولِهِ ﷺ فَمِنَ الواجبَ أنْ نجمعَ ما تكرّرَ فِي كلامِ اللهِ وكلامِ رسُولِهِ . . .» كأنّه فوق تحريضنا على أن نفعل ما يرجو ، هو ينبهنا إلى أنّا في تقصِيرنا ، وانشغالنا عن جمع ما تكرر في بيان الوحي كأنَّا رغبنا عن العلم بما له شأن عند الله تعالى وعند رسُولِه ﷺ ، وكأنَّ الأمر لا يعنينا .

هو بهذا يدلُّنا على أنّ الاعتناءَ بذلك هُو من بابِ الاعتناءِ بما عُني به اللهُ تعالى ورسُوله ﷺ ، وهذا نزولٌ على محبوبِ الله سُبْحانَه وبَحمدِه ومحبوبِ رسُولِه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ .

وهو من وراء ذلك يعلمنا كيف يُمكننا أن نعرفَ ما له شأن عند الله تعالى وعند رسُولِه ﷺ ، وهذا منه أخذ بيد طالبِ العلم ليطعم من عملِ يده . وذلك من همومه العُظمَى .

* * *

والشيخُ في عنايته بـ «التّكرار» من أنه وسيلة إلى سهولة حفظ البيان وتقريره في النفسِ هو بالغ العناية بتأكد خاصة تيسير الحفظ والتقرير في القلبِ في بيان النبوة في مواضعَ عدّةٍ مِنْ سِفرِه ، ليجعلَ هذا التَّيسيرَ سُنَّةً لنا نتأسّى فيها بِه ﷺ :

« قلتُ : إنّ بلاغةَ بلاغِ رسُول الله ﷺ فيها عنصرٌ بالغ الأهميةِ طالما أغفلناه ، وهو عرضُ بيانه عَلَيْه السلامُ في صُورةٍ يَسْهُلُ معَها ، وبِهَا حفظُ بيانِه ، وبلاغتِه ، ومِنْ أهمّ البلاغِ أنْ تيسّر حفظَهُ ، وتيسّر ذكرَه ... »[1]

قوله : « بالغ الأهميةِ طالما أغفلناه » يجمع لك فيه أمرين : قيمة هذا الشَّيء « بالغ الأهميةِ »، وموقفنا منه« طالما أغفلناه » وفي هذا من اللوم النافذ ما فيه ، فإذا كان بالغَ الأهمية ، فكيف بنا مردنا على إغفاله ، وتأمل قوله « أغفلناه » دون (غفلنا عَنْهُ) : في « أغفلناه » معنى ليس في « غفلنا عنه » في أغفلنا لفتٌ إلى أنّ ذلك عن وعيّ ، وكأننا لم نُعنَ بما فيه من الأهميَّة البالغةِ ، وفي إضافةِ الصّفةِ إلى الموصوفِ « بالغ الأهميّةِ » والعدول عن اتْباعِ الصِّفةِ الموصوفَ « أهميَّة بالغةٌ » ما يَهدِي إلى قُوَّةِ الصِّفةِ فِي المَوصُوفِ ، حتَّى صارَ المَوصُوفُ مضافًا إلى الصِّفة . وأنَّه لا ينفكُّ عنْها . تابع لها . لايكونُ إلاَّ إذا كانتْ .

ليس من وراء هذا اللوم من الشّيخِ ما يحتاجُ طالبُ العلم إلى أن يُلهز به لينتبِهَ .

كلمة وجيزة « بالغ الأهميةِ طالما أغفلناه »، ولكنها نافذة ، بل أقول مُوجعة ، كاشفة عن غيرِ قليلٍ من خطلٍ آخذٍ بنا .

وكأنّي بسَيِّدنا رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ أراد أن يكون لبيانه نصيبٌ من قول الله تعالى في شأن كتابِه : ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ**

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٥٦٥/٢

لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر:١٧) فاتخذ سبيلا إلى تيسير بيانه للذكروالحفظ والحضُور ، وهذا من عنايته بمعاني بيانِه .

ولعلنا طلابَ العلم نعمدُ إلى استحصاءِ معالمِ تيسيره صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ذكر بيانه وحفظه واستحضاره ، ومنهجه في ذلك ، وأدواته التي اتخذها إلى ذلك ليكون لنا زادٌ إلى حسن فهم بيانه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ أولاً ، وليكون لنا ثانيا اقتداء به في إفهامنا الآخرين ما نريد .

* * *

وَمنْ حلية بيان النبوة حلية السلاسةِ والعذوبةِ : السّنة البيانية للحديث النبويّ أنّ ما تجدُ فيه من صَنعةٍ تجدها « كأسلسِ وأعذبِ ما تكونُ الصنعةُ ، ولكنه عليهِ السّلامُ لَم يقصِدْ إِلَيْها ، وإنّما تأتي عَفوَ الفطرةِ البيانيةِ العاليةِ ، كهذا التّعادل والتوازنِ الّذي تَراهُ فِي قولَه : « تطؤه بأخفافِها ، وتعضّه بأفواهها » جُملتان مُتساويتان فِي عددِ الكلِماتِ وأنواعِها . كلُّ جملةٍ رأسُها فعلٌ مضارعٌ يسْتحضِرُ لك الصُّورة .[1] هذا التَّعادلُ فوقَ أنّه يُعينُ على الحَملِ والحفظ هو يُعينُ على التَّطلعِ إلى ما بينها من تلاقٍ في المعنى ، فالتّشاكل في الصُّورةُ يَحملُ في رحمِهِ تشاكلا فِي المَعنى ، فإنّ المعانِي على أشكالِها تَقَعُ ، وما تعارف منها إئتلف . ففي هذا التناغُمِ بيْن الصورِ حملٌ إلى إدراك ضرب آخر من التّآخِي مناطُه المعنى ، وحينئذ تتطلع النَّفسُ الشّغُوفُ إلى الوقوف على ما بيْن هذه المعانِي من تراحُبٍ وترابُحٍ . وهذا من سبل التيسير للذّكرِ .

ومِن سبلُ العنايةِ بالمعنَى أن وطّأ له في القلوبِ لِتسكنَ إليه وتطمئن به ، فتفعلُ فيها ما يُراد بها أن تفعلَ . وليس أقبح من رجلٍ لا يُعنى بالحفاظ على ولائدِهِ ، وبيان المرْءِ من ولائدِهِ ، ومعانيه ممَّا هو مكلّف بالحفاظِ عليْها ،

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم . ٥٨٥/٢

وكفى بالمُبين معابةً أن يُضيع معانيه ، فلا يُمكن لها في نفوسِ النّاسِ بِحملها على متن وطاءٍ ، وكفى بالمتكلم ألا يُحسن قرى سامعِهِ .

وقد كان رسُول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ . ورأسُ الخيرِ الذي يَجودُ بِه العِلم بما لا يعلمه المرءُ إلا مِنه صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ

* * *

ومن البعد البياني في صَنيع الشيخِ رصده حركة المعنى في الكليات الجامِعة من بيان سيّدنا رَسُولِ الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وهو في بيانه جدٌّ كثيرٍ . البصرُ بمحمول هذا البيان الجامعِ يحتاج إلى أمرين :

الأمر الأوّل : اتساعُ أفق الرُّؤية بحيثُ لا يكونُ في اتساع الدَّائرة التي تُحيط بهذا الفيضِ من المعاني معيقًا عن البصر بأقطار المحمول .

واتساع الرُّؤية هو وليد اتساع القلبِ المتلقّي ، وهذا لا يتأتى لقلبك إلا إذا كان مكنونه المعرفيُّ متسمًا بالتّنوعِ والتّعمّق والتَّدقيقِ والتَّحريرِ الذي يأذنُ له أن يتداعَي ويتنادَى .

والأمر الآخر : الفراسة البيانيّة التي بها يتحقَّقُ التّغوّرُ في أدغالِ المعاني وأعماقها ، فيبصرُ ما بيْنها من اتّفاقٍ وافتراقٍ ، فيتأتَّى لهذا القلبِ أن يجمعَها بسببِ الرَّحمِ الناشبِ بيْن هذه المعاني المتنوّعة المتعدّدة المُتباعِدة في ظاهرِها المتآخية في جوهرِها .

وهذه المهارةُ مِن أوجبِ مهاراتِ العقلِ البلاغيّ ، ولذلك كان عبدُ القاهر ناصًّا على هذه المهارةِ في كتاب « أسرارِ البلاغة » ، فجعلَ محور هذه الأسرار في أمر المعاني كيف تختلف وتتفقُ ، ومن أين تجتمعُ وتتفقُ . . . . تأمل قوله (كيف) وقوله (من أيْن . . .).

الشَّيخُ كان احتفاؤه بهذا الأمر : كيفيةِ اختلاف المعاني واتفاقها ، ومخرج اجتماعها وافتراقها ، وأيها الأصل الذي تفرع عنه غيره ، وأيها العام المتفاسح وأيها الخاص المُتعيّن . . .

هو بهذا الباب من النّظر البيانيّ أكثر احتفالاً واحتفاء في قراءته أحاديث من صَحيح مسلم من احتفائه بضروب أُخر هي إلى النّظر الجزئيّ أقرب ، فمسلك الشيخ هنا أقرب إلى نهج المُحصّلين الذين يحتفون بالكلياتِ الضابطة ، وبيان أمر المعاني اتفاقًا واختلافًا . . . من هذا الباب .

فَلَوْ أَنَّك جمعت مقالاتِ الشّيخ في قضايا البيان ، ونظرتَ فيما هي إلى الكليّة أَقربُ وما هِيَ في الجزئية أدخلُ رأيت غلبةَ حضورِ ما هي إلى الكليّات أقربُ ، فالعقلُ الجَمعي كانت له الغلبة على صنيع الشّيخ في هذه القراءة ، على أَنَّ تبصُّرَه بالجزئيِّ حاضرٌ زاهر إلاّ أنّه دون الأول .

هل لك أن تصغي إليه وهو يقرأ قول رسول الله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ : « تضمّن اللهُ لمن خرج في سبيله . . . » [1]

تَراه محتفيًا بالنظر فِي امتدادات المعاني وتوالدها وتشابكها وتلاحظها وبناء بعضِها على بعضٍ في الفقر الأربع من الحديث بعضها على بعضٍ وتوالدها ، وما هو الأصلُ منها ، وما يضيفه كلٌّ إلى سياقِه ، وما يُمهِّدُ به للحاقِه ، فإذا المعاني في الكلام البليغ أسرةٌ تقبلُ على المعنى « الأم » برًّا وخدمةً ورعايةً وتربيَةً .

وينصُّ الشيخُ على أنَّ « دراسةَ هيئةِ المعاني وبناءِ بعضها على بعضٍ مِنْ أهمّ ضُروبِ دراسَةِ بلاغةِ البيان ؛ لأنها تكشفُ كيفَ قامتْ هذه الهيئةُ فِي نفسِ المتكلّم ، وكيف ترتَّب بعضُها على بعضٍ ، وكيفَ قامتْ فِي النفسِ قيامًا واحدًا . . .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٣٢٢/٢

ومن الواجبِ أن ندرسَ هيئةَ بناءِ المعانِي فِي كل رسَالةٍ ، وفي كل مقالةٍ ، وفي كلّ قصِيدةٍ ، وفي كلّ حديثٍ وفي كلِّ سُورة سُورة»[1].

ومخرج هذا الاحتفاء ـ في ما أفهم ـ ما بُنيتْ عليْه شخصيته الأخلاقيّة ، فهو ـ فيما عهدتُ قرابة نصف قرن ـ رغوبٌ فِي رؤيةِ مقومات الجمال السّلوكيّ الذي هدانا إليه بيان الوحي : قرآنًا وسنة وهي جدُّ كثيرة قائمة في البيان . ومن أبرز مقومات الجمال السلوكي الّتي هدى إليها الوحي قُرآنا وسنة ، مقوم التآخي والتماسك : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات:١٠)

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾

(البقرة:١٧٨)

﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ (الحجرات:١٢)

وبيان النبوة ملآنٌ بذلك . من هذا ما رواه الشيخان بسندهما :

«الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ ، وَمَنْ كَانَ فِى حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِى حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» .

وما رواه البخاري من حديث أَنَسٍ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ : «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» والمقام يضيق عن استيعات بعض ما جاء في هذا .

قلت : رأس مقومات الجمال السلوكي في المجتمع المسلم هو التآخي ، وهذا التآخي هورأس مقومات الجمال في البيان اللساني . وعبدُ القاهر أقام نظريته في أساسِ بلاغة البيان وروحها على هذا (التآخي بين المعاني)

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٣٢٦/٢

يقُول عبدُ القاهر : « واعلمْ أنَّ ممَّا هو أَصلٌ في أنَ يـدِقَّ النظـرُ ، ويَغْمُـضَ المَسْلكُ ، في توخِّي المعـاني الَّـتي عرفـتَ : أنْ تتَّحِـدَ أجـزاءُ الكـلامِ ويَـدخلَ بعضُها في بعضٍ ، ويشتدَّ ارتباطُ ثانٍ منها بأول ، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضَعَها في النفس وضعًا واحدًا ، وأن يكونَ حالُكَ فيها حالَ الباني يَضعُ بيمينه ههنا في حالِ ما يَضَعُ بيَساره هناك . نَعم ، وفي حـالِ مـا يُبْصـر مكـانَ ثالـثٍ ورابعٍ يَضعُهما بَعْدَ الأَوَّلَيْن .

وليس لِما شأْنُه أن يجيءَ على هذا الوصفِ حَدٌّ يَحْصرُه ، وقانونٌ يُحيطُ به ، فإنه يجيءُ على وجوهٍ شتَّى ، وأنحاءَ مختلفةٍ[1] .

والحقّ أنّنا لو استجمَعنا ما جاء في القرآنِ من آياتٍ وما جاء في السُّنَّة من أحاديثَ تعين مقومات جمال السلوك الاجتمـاعي في الأمَّـة ، وصـنّفناها وفـقَ مجالاتِها ، لأمْكنَنا أن نتخذ منهـا نظريـة في جمـال البيـانِ اللسـانيِّ . فأصـولُ الجمالِ في عالم الإنسانِ هي أصلٌ لأصولِ مقوماتِ الجمالِ في عالم البيانِ .

* * *

ومنْ مَعالم البُعدِ البيـانيّ (الجمـالي) في منهجـه الاعْتِنـاءُ باتّسَـاعِ المعَـانِي وإحكامِها ، هو حفيّ بما كان مِن الكلم أو النّظم ذا اتسَاع رحِيبٍ تتنـادَى فِيـه المعاني ، فيبرزُ لنا منها الشَّيخُ ما قد لا يكون قريبًا استحضارُه عند كثير .

من هذا ما تراه في تبصّره ما رواه مسلم في كتاب « الإمارة »: من صَـحيحه بسنده عَنْ زِيَادِ بْنِ عِلاَقَةَ قَالَ سَمِعْتُ عَرْفَجَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّـهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَـرِّقَ أَمْـرَ هَـذِهِ الأُمَّـةِ وَهْـىَ جَمِيـعٌ فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ » .

يتلبث الشيخ عند « وهي جميع » فيرى فيها مِن الاتساع الذي يجمعُ فيضًـا مِن المعاني الَّتي لا تجتمعُ في غيرها . يقولُ :

---

(١) دلائل الإعجاز (م . س) ص ٩٣ ، فقرة (٨٣)

« لابدَّ مِنْ مُلاحظَةِ كلَمةِ (وهِي جميعٌ) أي مجتمعة علَى قلبِ رجلٍ واحدٍ ، ثُمَّ هِيَ مجتمعَةٌ حولَ حاكمٍ أفضلَ ، وماضِيةٌ نَحوَ العملِ الأفضلِ والقولِ الأفضلِ والتّعليمِ الأفضلِ والتطورِ العلميّ والصّناعيّ الأفضلِ . وهذا منْ معَانِي اجتماعِ الأمَّةِ ، ولَمْ يكن الحاكمُ الجاهل الغبيّ ... لا بُدَّ من ملاحظةِ هذا كله ، إذا جاءنا ونحن مجتمعون حول العادل الراشد . . . » [1]

كذلك يذوق الشّيخ كلمة « وهي جميع » لا يأخذ الكلمة في هذا السياق مطلقة ، فيظنّ أنّه إذا اجتمعت الأمَّة على حاكم ظالم فاسقٍ يعملُ على إذلالِ الأمّة ، واستنعاجِها وإضاعة الدّين كان حقًّا أن يكون النَّاسُ من حولِه طائعين .

مجرّدُ الاجتماع على الحاكم لا يكفِي ، لا بدَّ مِن ملاحظةِ حال الحاكمِ المجتَمع عَليَه ، وحالِ الشَّعبِ المُجتمع . بهذا تتحدَّد دَلالة الكلمةِ . فهذا التَّحديد مُستمَدٌّ مِن الغايةِ مِن الدّين ، والغايةُ من اجتماعِ الأمّة .

كلُّ اجتماعٍ لا تتحقَّقُ فيه الحِكمةُ مِنه هو والافتراقُ سَواءٌ ، بل ربما كان الافتراقُ حينًا أخفَّ وطأة من الاجتماعِ على ما لا يرضاه الله تعالى .

استطعام « الكلمة » في سِياق مقاصدِ الدِّين مهمٌّ جدًّا ، وهذا ضابطٌ مهمٌّ كما أنّه قرينة معِينةٌ على حُسن الفَهم ، وإقامةِ الكلمةِ مقامَها الفاعل . .

وهو يتذوق كلمة « وهي جميع » يلتفت إلى حديثٍ ذكره صاحب اللسان ، وهو بصدد بيان معنى « هنات » : « سَتَكُونُ هَنَاتٌ ، وَهَنَاتٌ ، فَمَنْ رَأَيْتُمُوهُ يَمْشِي إِلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ، فَيُفَرِّقَ جَمَاعَتَهُمْ ، فَاقْتُلُوهُ »[2]

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٩٢/١ .

(٢) السنن الكبرى للنسائي (ت : ٣٠٣هـ . تحقيق : حسن عبد المنعم شلبي . أشرف عليه : شعيب الأرناؤوط نشر : مؤسسة الرسالة ـ بيروت . ط(١) عام : ١٤٢١هـ/ باب قَتْلُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ / رقم : ٣٤٧١) شرح مشكل الآثار . تأليف : أبي جعفرالطحاوي : أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي المصري (ت : ٣٢١هـ) تحقيق : شعيب الأرنؤوط . نشر : الناشر : مؤسسة الرسالة . ط(١) عام ١٤١٥ . ==

فيرَاها أقوى في الدَّلالة على تماسك المجتمع : «لاحظْ كلمة» أمّة مُحمّدٍ «لأنّي أفهمُ منها معنَى التَّماسك ، والتآزر ، والتّسَاندَ والتَّحاب ؛ لأنَّ مُحمداً ﷺ هُو ينبوع الحُبّ فِي قلبِ وضميرِ ورُوحِ الأمَّة . . .»

فإضافة كلمة «أمّة» إلى رسول الله ﷺ توجب لهذه الكلمة دَلالتها على اتّسامها بالتّماسك ، فإنّها لا تؤمّ إلاَّ إليه ﷺ ، ومن كان مأمّه رسول الله ﷺ ، فلن يفرِّقه شيْءٌ ، ولنْ يكونَ اجتماعه على باطلٍ .

الدَّلالة على الاجتماع على الحق والخير في «أمّة محمّدٍ» دلالة إضافية ، فكلمة «أمة» تفيد أنهم آمين «سيّدنا «مُحمداً» صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ وهذا لا يكونُ إلا في الحقِّ والخيرِ .

استطعم الشّيخ الإضافة في «أمة محمد» . هي مخرج حُسن الدلالة على التّماسك وتمامها وإحكامِها .

أَكْسَبَ المضافُ (محمّد) المضافَ إليه (أمّة) معنًى لا يكونُ لغيرِ هذه الأمَّة . فليس في الأرضِ البَتة أمَّةٌ كمثْلِها في أمِّها ومحجِّها واجتماعها . فكلُّ أمة غيرها لا تؤمّ إلى مثل ماتؤم هي إلْيه[1] .

== (بَابُ بَيَانِ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ : «تَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ) ١٠١/٦ (رقم/٢٣٢٥)، والطبراني في المعجم الكبير (رقم : ٣٥٣) والأوسط ، (رقم : ٣٧٤٩ ، ٦٠٣٢) والبيهقيّ في السنن الكبرى (رقم : ١٦٦٩٠) والصغرى . (رقم : ٣١٤٥)

(١) كلمة «أمّة»منسولة من مادة (أ م م) القصد ، فالأمّة أصل معناه من اجتمعوا في القصد إلى شيءٍ ، ولذا لا يقال أمة إلا إذا كان هناك اجتماع إلى شيءٍ . يجمعها .
من هنا كانت ملاحظة الاجتماع في القصد إلى رسول الله ﷺ في قولنا«أمة محمدٍ» فمأمُّهم هو رسُول الله ﷺ . فهي«أمة محمد» باعتبار أنه ﷺ هو مأمها ، وليس مجرد الانتسابِ الموروث الذي لا يؤكده لسان الحَال ، ودلائلُ السلوك ، فأمته ﷺ في الحقيقة هي التي أمَّته هدًى يأخذ بجوانب الحياةِ كلّها ومجالاتها بغيرِ استثناء إلا ما كان من أن الدنيا الصّرف من نحوز مناهج استزراعِ الأرضِ ، واستصناع الأسلحة ، وأدوات التنقل وغيرِ ذلك .

كذلك نتعلم من شيخنا الموازنة بين مُستويات الدّلالة على المَعنى بين المتقاربات ، ونتعلّم السعي إلى البصرِ بِمخرجِ القوة في ما كان منها أقوَى ، فليس المُهمُّ فقط أن تدرك عُلوَّ جملةٍ في الدَّلالة على مَعنى على جملة أخرَى ، بل الأهمَّ الأتمّ أن تدرك مع ذلك مخرجَ هذه القوّة ؛ فإدراك مخرَج المعنى والأثر مهارةٌ تمنح صَاحبها حسن البصر بحركةِ المعنى ، وروافدِ استمراره وقوتِه حتى يبلغ محجّهُ .

السّعي إلى امتلاكِ مثلِ هذه المهارات في عالم البيان يُعينُنا إنْ أحسنا الاستثمار في امتلاك مثلها في عالم الإنسان .

نحن ـ طلاب علم البلاغة العربيّ ـ نجتهدُ في البصرِ بحالِ البيان ، وعَوامل قوته ، وثرائه وإحسانِه وجُودِه وفي البَصر بعوائق حركتِه إلى مأمّه ؛ ليكون لنا من ذلك اقتدارٌ على مُمارسة ذلك في عالم « الإنسان » فهذان : عالم « الإنسان » ، وعالم « البيان » هما على مَحجة ، وهما من رحمٍ ، فعُظم الأصول الضَّابطة حركة الإنسان لها نظير في عالم البيان ، وعُظم ما هدَى إليْه سيّدنا رسول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ من عوامل تحقيق « الجمال » في عالم « الإنسان » لي ، بل عليّ أن أُبصره أيضًا في عالم « البيان » .

* * *

ولتنظر ما قاله في اتساع المعنى في قول رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ : « كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ » .

هو يرى هذه الجملةَ جامعةً كلّ القوانين العادلة في العلاقة بيْن الناس فما من قانون أوقاعدة عَدْلِيّة إلا وهي منسولة من هذه الجملة الأمّ . يقُولُ : « كلمة « كلّ المُسلم » كلمةٌ نادرة ؛ لأنّ لفظ « كلّ » يدخلُ على ما له أجزاءٌ . . . والمُسلم شيءٌ واحدٌ وإنّما أرادَ منّا عليه السّلام أن نعرفَ حقُوقَه المتعلّقة به ، فله مالٌ ، وله عِرضٌ ، وله دمٌ . . . إلى آخرِه وكأنَّه وَحده عائلةٌ ، وكلُّ هذه

العائلةُ حَرامُ . . . ولو قلتَ كلَّ الإنسانِ على الإنسانِ حرامٌ تكونُ قد أصبتَ ؛ لأنَّ هذا في الشرائع كلّها .

وإنّما خصّ المسلمَ للذي قلناه في مِثلِه ، ولمْ أعرفْ احترامًا لِحقوقِ الإنسانِ كالاحترامِ الّذي أجدُه في هذه الجملةِ وحدَها ، والمكوَّنةِ مِن كلمتين ، ولمْ أعرفْ صَونًا للحُرمات كهذا الصونْ الذي أجدُه فِي هاتين الكلمتيْنِ ، بلْ لَمْ أعرفْ أخصرَ لفظًا ، وأَوفرَ معنًى في كلامِ النّاسِ مِن هاتيْن الكلمتيْنِ ، وتدبّرْ أنْتَ وراجع ؛ لأنّني لو تابعتُ امْتدادَ هذا المعنَى واتساعَه وسدادَه ، ومدَى ما فِيهِ مِن إكرام وكرامةٍ لِهذا الإنسانِ ، فسَيطولُ بي الكلامُ ، ويصرِفُني عن غيره»..[1]

اتساع كلام النبوة مخرجه اتساع الرُّؤية : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (سبأ:٢٨)

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧)

وروى مسلمٌ في كتاب «الفضائل» من صَحيحه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِستٍّ :

أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُحِلَّتْ لِىَ الْغَنَائِمُ وَجُعِلَتْ لِىَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً وَخُتِمَ بِىَ النَّبِيُّونَ» .

ذلك يقضِي باتساع الكلامِ وسبوغِه ، والاتساع مناطه الرّئيس «المعنى» يتبعه اتساعٌ في دلالةِ الصُّورةِ ، وليْسَ في تكوينِ الصّورةِ .

لا تحقق رؤيةُ اتساع الكلام إلاّ من اتساع أفقِ القلبِ المتلقّي ذلك الكلام ، فليس كلُّ سامعٍ واعٍ ما يحلّ في الكلامِ .

واسْتحضار خصُوصية رسُولِ اللهِ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعلَى آلِهِ وَصَحبِهِ بعموم رسالته معينٌ على الاجتهاد في رؤية اتساع كلامِه ﷺ ، وكذلك

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٦٨٦/٢، ٦٨٧

استحْضارُ قوله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ : « . . . أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ » إذا ما فهمْنا منها أنّها بيان النبوّة[1].

* * *

وتجد هذا أيضًا في تبصّره رواية أخرَى لهذا الحديثِ فيها استهلالُ البيانِ النَّبويّ بكلمةٍ رآها الشَّيخُ جامعةً لكلِّ الرَّذائلِ الَّتي جاءَ تفصيلُها في الرِّوايةِ الأمِّ . يقول : « وروايةُ أبي هريرة الَّتي رواها الأعرج « إيَّاكمْ وَالظّنّ ، فإنّ الظنّ أكذبُ الحديثِ ولا تَحَسّسُوا . . . . »

والجملةُ الأولَى الَّتي ابتدأَ بها الحديثُ في رواية الأعرج عن أبي هريرة ، وهي : « إياكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذبُ الحديثِ » توشِكُ أن تكونَ رأسَ هذا الحديث ، وتلاحظُ أيضًا أنّ الظنّ المنهيّ عنه هو رأسُ وجود هذه الرذائل في النفسِ فهو الذي تتولدُ منه كلّ ما دخلتْ عليْه « لا » النّاهية في الحديثِ »[2]

وهُوَ إِذَا مَا كَانَ قد لفتك إلى ما في رواية عبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة عن رسُول الله صلى من براعة الاستهلال بقوله : « إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ » وما في هذا الاستهلال بمعدن الرذائل ما يُعين ذا القلبِ المعافَى على أن يتوقفَ عندها ثم يمضِي متبصرًا مفصلاً ما يتولد من هذا

---

(١) قوله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ : « أعطيت جوامع الكلم » هو نفسُه من جوامع الكلم ، واتساعه ، فَمن قصره على أنّه القرآن لم يكن هو الأعلى في ما ذهب إليْه . الأعلى أن جوامع الكلم التي أعطيها إنّما هي القرآن وبيانه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ .

والذي يشهدُ أنَّ بيانَه مِن جوامعِ الكلم ما رواه الدَّارَقطنِيّ في كتاب« النّوادر » من سُننهِ بِسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَاخْتُصِرَ لِي الْحَدِيثُ اخْتِصَارًا » (حديث رقم : ٤٢٧٥)

(٢) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٦٧٢/٢، ٦٧٣

الظنّ الذي هوأكذب الحديث ، فيجد نَفسه قد مضتْ تحصى فتعجزُ عن الإحصاء من تكاثر هذه الرذائل المتولدة من الظنّ الذي هوأكذبُ الحديثِ ، فيعظُم خطرَ هذا الظنّ الَّذِي هُو أكذبُ الحديثِ .

وهذا مسلكٌ مِن مَسالكِ تعظيمِ أثرِ المَعاني في النُّفوسِ ومِن توسيعِها ، ثُمّ يلتفتُ المتلقي إلى ما جاء به الرَّسول صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ من هذا الرَّذائل ، وما اصطفاه منها ليصرّح بذكره ، فيجعله ذلك يتبصَّر ما في هذه الرذائلِ المُختصَّةِ بالذّكر من عظيم الخطرِ المُمزّق للأمّة الغارسِ في قلوبِها عواملَ التَّدابُرِ والتَّطاحُنِ الَّذي هو أقوَى أسلحةِ انكسارِ الأمّةِ وانهيارِها[1].

وهذا التّخصيص بالذكر هو ما يسميه البلاغيون بـ (التّخصيص في الإثبات) الذي لايفيد حصراً .[2]

وهذه الرذائلُ المذكورة في هذه الأحاديث على تنوّعٍ في عدَدها وفي ترتيبِها هي التي ترَاها الآن في عصرِك ومصرِك وفي كلِّ تجمُّعٍ تحلّ فيه وإن كان تجمُّعَ من يُنسبون إلى العلم . تجدُ هذه الرذائل قد أورقت وأزهرتْ وأثمرتْ

---

(١) غرسُ عوامل التّدابر والتّطاحن والكراهية المستطيرة وتربيتها وحمايتها في الأمّةِ الإسلاميّةِ والعربيّة عامةً ، وفي الأمّة المصريةِ خاصّة هو فريضة الوقت عند ثلة منها . إيمانًا منهم بأن تلك العوامل هي التي ليس كمثلها شيءٌ في الأخذ بهذه الأمة إلى الهلكةِ .
ولو أدرك أَبناءُ هذه الأمة ذلك لكان لهم إلى التصالح والتناصح والتصابر على الحق والخير مسارعة . **بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾** (العصر:١-٣)

(٢) التخصيص في الإثبات هوالتخصيص في الذكر دون أن يفيد هذا حصر الأمر فيه ، فهو لا يفيد القصر ، أما التخصيص في الثبوت فهو التخصيص الحصري الذي هو طريق من طرق القصر (غيرالاصطلاحي) ينظر : المصباح شرح المفتاح للسيد الشريف . ص : ١٦١ . (م . س)

ممّا يستوجبُ الاجتهادَ في التَّحذيرِ وفِي إصلاحِ ذاتِ البَيْنِ ، وفِي مُقاومةِ كلِّ مُحاولاتِ التَّنميةِ لها بيْن النَّاسِ على نحوِ ما تراه في أفاعيلِ سَحرةِ إبليس عَبْرَ بعضِ وسائلِ الإعلامِ .

ثم تراه يلتفت إلى ما اشتملت عليه رواية عبدِ الرحمنِ الأعرجِ عن أبي هريرة عن رسُول الله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ من اختتامها بقوله عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « كُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا » . من حسن الختام . وكيف أنّها وقعت مما قبلها موقع الفاصلة القرآنية ، وكأنه يلفتك إلى تأثر البيان النبوي بالبيانِ القرآن في بناء صُور معانيه التي أوحاها الله تعالى إلَيْه.

« وقَولُه عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « كُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا » مِن أكرمِ الكلامِ وَأكرمِ الْمعَانِي ، ويفتحُ البابَ لأكرَمِ حياةٍ فِي أكرمِ المُجتمعاتِ . وهذه الْجُملةُ العاليةُ تضمّنتْ ما قبلها ، هي بمثابةِ « الفاصلة القُرآنية » الّتِي تتضمّن كلّ الذي مَضى . . . » [1]

فأنت ترى المعنى قد أورده الرسول صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ في ثلاث صور : صورتان مجملتان بدأ بأحدهما : « إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ » وختم بالثانية : « كُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا » وجعل من بينهما صورة المعنى المفصّلة .

وبهذا يحقَّقُ للمعنى وصوله إلى القلبِ وتمكُّنه فيه ، ويُحقق للقلب أن يستمعَ بوروده عليه في صورٍ متَنَوِّعة ، فإنّ التَّفنن في تقديمِ المَعنى في صورٍ متنّوعة ممَّا يفتحُ شهيةَ القلبِ في الفهمِ ، ففي هذا مُراعاة لحقِّ المعنَى منْ جهة وحقّ المُساق إليه المعنَى مِن جهةٍ أخرَى ، وهذا نهج وافر في بيان النبوة : يورد المعنى ثلاث مرات على قلب السامع وقد غدا من السُّنة البيانيّة له صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٦٧٩/٢، ٦٨٠

ويلتفتُ الشَّيخُ إلى ما في قوله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ : «كُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا» من عموم الأمر ، فالإعراب بـ«عِبَادَ اللَّهِ» هادٍ إلى مخرج هذا الأمر : «الأمر بالأخوة» من جهةٍ وإلى عمومِه من جهةٍ .

مخرجُه أنّ المأمورين به متساوون في أنَّهم «عبادُ الله» وهذا نسبٌ لا سبيلَ إلى نقضِه ، ولا سبيل إلى أحد ذي عقلٍ أن يغفُل عنه وهو أكرمُ نسبٍ وهو الأولى بأن يُوصل ، والأولى بأن يُحفظ حقُّه ، والأولَى بأن يكون حجازًا من كلّ إضرار بأحد ، فالخطاب عند الشيخ في : «كونوا» خطاب للإنسانِ كلّ الإنسان في كلِّ عصرٍ ومصر وجنس ولسانٍ ومعتقد : المسلم وغيرُه فهم جميعًا فِي هذا سواءٌ . هم جميعًا قائمون في أرضِ الله تعالى وهم جميعًا تجمعُهم حِلية واحدة «عباد الله» .

وفي اصطفاء كلمة (عباد) تثويرٌ لمعنى القنوت والخشوع والتسليم لهذا الأمر ، فشأنُ العباد أن يستسلموا لأمر مَن هُم عبادُه .

وأنت تلحظ التآخي الدّلالي بيْن كلمة (عباد) و(إخوانا) فاشتراكهم في العبودية لله سُبْحانَه وَبِحمدِه يوجبُ الكونَ أخوةً . يقُول الشّيخ :

«ثُمَّ إنَّ كلمة : «كُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا» المخاطبِ بِها كلّ عبادِ اللهِ : مؤمنهم وكافرهم ؛ لأنَّ كلمة «عباد الله» في الكتاب العزيز جاءتْ لِمن آمنَ ومَن لمْ يُؤمن[1]

وهذا يَعنِي أنَّ المرادَ بِهذه الأخوة هو المَعنى الإنسانيّ حَتّى تستقيم حياتكم ، وحتّى تتعايشُونَ مُتسالِمينَ مُتعاونينَ مَع اختلافِ عقائدكم ، وقد أمرنا ربنا أن نغفرَ للذين لا يرجونَ أيامَ اللهِ ، وهم الذين لم يؤمنوا ، وقال لسيدنا عليْهِ السلام : ﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞ ﴾ (الزخرف:٨٩) ....»[2]

(٢،١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ٦٨٠/٢ .

وهو ينظر إلى صِيغةِ الفعل (كُونُوا) من جهتين : من جهةِ الغرضِ البلاغيّ . ومن جهةِ المعنى المحمول في مادة الأمر : «الكون» .

وكأنّه يفلتك إلى وجه العدول عن قولنا (تآخوا عباد الله) إلى قوله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ : «كُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا» ففرق لا يغيمُ بيْن أن تقولَ لصاحبِك : «برّ والديك» وأن تقول له : كن بارًّا بوالديك . يقُول الشيخ :

«وفعلُ الأمرِ فِي قَولِه ﷺ معناه النّصحُ والتَّوجيهُ إلى عملِ الصّالحاتِ . ومعناه أيضًا صِيروا وتحوّلوا أي غالِبوا نوازعكمْ وغرائزكمْ المعارضةِ لِهذه الأخوةِ وافتحوا قلوبكمْ وعقُولكمْ حتّى تتقبّلَ الآخرين ، وروّضُوها على المعايشةِ الهادئةِ والناعمةِ والطيبةِ حتّى تألفُوا وتؤلفوا . وهذا من الذي تستطيعونَه ، ولو لم تستَطِيعوه مَا كلفتمْ به

لا بدّ أن تخرجَ مِن السّردابِ المغلقِ الّذِي تطوِي نفسَك فِيهِ ، وتنفرَ مِمّنْ يُخالفك فِي الدّينِ أو فِي الفكرِ أوْ في السّلوك ، ولابدّ أن تتحركَ فِي الفضاءِ الأوسعِ ، فتَقبلَ الآخرين ؛ لأنَّ الله ما نهاك أنْ تبرّ الذينَ خالفوك فِي الدين ما داموا لَم يُقاتلوك ولَم يُخرجوك ، ولم يُظاهروا على إخراجك»[1]

الشَّيخُ في بسطه ما اكتنزه الأمر بفعل (كونوا) يهديك إلى أنّ تحقيقَ هذا الكونِ ليس أمرًا عفويًّا بل هو يحتاجُ إلى إعدادٍ واجتهادٍ وعزم ، لأنّه حمالٌ في رحمه تكاليف جدّ عظيمة ، هي على الرَّغم من ذلك ممّا يمكن للإنسان ـ إن أراد وعزم ـ أن يقوم به خيرَ قيام ، ففي هذه الإرادة وذلك العزم الصادق سبب في أن يكونَ له عونٌ من الله تعالى عليْهِ ، فإنه جَلَّ جَلالُهُ إذا ما قام في قلبِ المرء إرادة الخير وعزم عليه ، واتخذ له أسبابا بسط الله تعالى عليه من عونه ما يجعل العَصِيَّ في نظر الآخرين جدّ يسير عليْه . ممّا يدْهشُ الآخرين أنّى

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ٦٨١/٢ .

لذلك أن يقومَ بمثل هذا ، وما علموا أنه أراد وعزم واستعد ، فكان له من الله تعالى عظيم العون . ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران:١٥٩) ولذا أَكَّد الشّيخ هذا بقوله : وهذا من الذي تستطيعونَه ، ولو لم تستَطِيعوه مَا كلفتمْ به» يريدُ أن يقول لي كلُّ ما تكلَّف به أي تلزم بإيقاعِه أو تلزم بتركِه ، وإن كان في نفسِه ثقيلا ، أو كان في نظر الآخرين ثقيلاً ، فليس عليْك إلا أن تُريد ، وأن يصدق عزمُك ، وأن تستفرغ جُهدك في اتخاذِ الأسْباب ، وليس عليك من بعدُ شيْءٌ ، بل الله سُبْحانَه وَتَعالَى هو المتكفِّلُ بما وراء ذلك .

وإذا ما كان أهلُ المروءة من عبادِ الله تعالى إذا علموا صِدق مُريدٍ للخيرِ وقوةَ عزمِه عليْه وقوةَ اجتهادِه في اتخاذ الأسباب له كانوا في عونِه ، وتأييدِه ومؤازرتِه ، فكيف بالله سُبْحانَه وبِحمدِه الّذي عرَّفنا بنفسِه قائلا جَلَّ جَلالُهُ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة:٢-٣) في مفتتح سورة « أم القرآن».

أحضَرَ سُبْحانَه وَتَعالَى في سَمعِنا وقلوبنا حمدَه ، وربوبيَّته العالمين ، ورحمانيّتَه البَسيطة المديدة الفسيحةَ الّتي لا تتناهَى اتّساعًا وسُبوغًا ، ورحيميته التي لا تتنهَى عظيم فضلٍ وجلِيله . ؟!!!

وهذا يهديك إلى أنَّ تحقيق هذه المفردات من الأفعال الجسام التي سردها الشيخ لتحقيق الكون إخوانًا لا تتوقف إلا على أن تريد هذا وأن يصدق عزمك ، وأن تتخذ الأسباب ثم دَع الأمر للذي أمرك على لسان رسُوله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ : « كُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا »

يمضي الشَّيخ إلى أن يلفتَنا إلى ما في هذا الحديث الجامع بين الرَّذائل المُتآخية أو المُتقاربة ، ويصف هذا النَّهج بأنّه « جيد في كلام سيدنا رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ ، وأنا أفهم كلمة « جيد» هُنا من

الجُود لا مِن الجَودة كما هو في الإدراك المجتمعي الآن لكلمة «جيد» ، أفهم أنّ «جيد» هو الجَواد الذي يُفيض عليْك من اللطائف ما تتوقعه وما لا تتوقعه .

وتراه يمضي مبينا أثر هذه الجمع بين المتآخيات والمتقاربات قائلاً : «وهو يعينُ على الحفظِ ، وهو مِن عوامل خفّةِ بيانِه ، ونعومةِ بيانِه ، وقربِه من القلوب والعقُول ، وهُو ممَّا تُسميه «البلاغة» فِي «البديع» : «مراعاة النظير» وهو كثيرٌ في كلامه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ تجدُ رحمًا جامعةً لِكثيرٍ مِن كلامِه ، وهي رحِمٌ مَوصُولةٌ غير مقطوعةٍ ، وكأنّها صُورةٌ لِقلوبِ أمتِه اقتَربتْ ، فتألفتْ .

وَمِن العجيبِ أنْ تجدَ التآلفَ فِي اللبنات الّتي بُني منها البيانُ الذي يدعو الأُمّةَ إلى أنْ تتآلفَ ، وتتقاربَ وتتساند ، كما تآلفتْ هذه الكلمات ، وتقاربتْ وتساندتْ .

وهذا ممَّا يُمكنُ أن يكونَ مِن «تصاقب المباني لِتصاقبِ المعاني» وكلّما غلغلتَ النَّظرَ فِي كلامِه ﷺ وقعتَ على خبايا في زوايا . راجع تآلف الوزن والرَّنين . . .» [1]

يلفتنا الشّيخُ إلى أثرِ التلاقِي بين المعاني والمباني في عالم البيان ، وأن هذا الذي هو قائمٌ في عالمِ البيانِ الذي هو صنعة الإنسان الأحرى أنْ يكونَ أكثرَ حضورًا ، وأمكن في عالم الإنسان ، فيكون لهذا التآلفِ بيْن أبناء هذا العالمِ الإنسانيّ موقعًا عليًّا ، وكأنَّ الشَّيخ يَنعى على عالم الإنسان أن يحرصَ على إقامة التآلف في معانيه وصورها وهي ولائد قلبه ، ولا يحتفي بإقامة هذا التآلفِ بيْن أبناء صُلبِهِ ، فكأنَّه نتيجة انفصام في السّلوكينْ ، من يعشق شيئًا ويحتفِي بتحقيقه في بابٍ هو الحفيّ به في كل باب ، ولكنّه «الإنسان» حليته النِّسيان .

* * *

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم . ٦٧٢/٢، ٦٧٣ .

والشَّيخُ ذو اعتناء بالغٍ بعلاقات المعاني وتآخيها وترتيبِ مواقعها على نسقٍ معينٍ لها على أن تتولجَ القلوب ، وأن تتمكَّنَ فيها ، ممَّا يجعلُه يناظرُ بين رواياتِ الحديثِ الواحدِ ، ويتبصّر مواقع المعاني وترتيبها في الرّوايات وما بينها من اتفاق وافتراق . ويعمد إلى تأويل ذلك وتعليلِه . يقول : « وقد جاء هذا الترتيبُ فِي الرّوايةِ التي رأسُها « إيّاكْ والظّن » واختلفَ فِي الرّواياتِ الَّتي ليس لها هذِه الرَّأسُ .

وَوجه هذا الاختلاف هو أنّ المقصُود النّهي عن كلّ رذيلةٍ مِن هذه الرذائلِ نهيًا مستقلاً ، وكأنّ كلَّ رذيلةٍ بلاءٌ برأسِهِ أفضَى إلى غيرِه أو لم يُفضِ ».

يلفتنا إلى أنّه لو جاء نسق المنهي عنه من الرذائل في الرّوايات كلّها على وتيرة لفهم أنَّ هذه الرَّذائلَ متوالِدةٌ : أنّ الثَّانيةَ وليدةُ والأُولى ، ووالِدةُ الثَّالثة ، وهذا يُضعِفُ النَّهي عَن كلّ رَذيلةٍ ، لأنّه لو قلْنا بالتَّوالُدِ لكان هذا كالقيدِ في النَّهي أي أن القصدَ النّهيُ عنها حين تتوالد . والسّياق قائمٌ لتشديدِ النَّهي عَن كلّ رذيلةٍ على حِدة ، لاباعتبارِ توالُدِها مِن غيرِها . . .

وهُو في هذَا ينظرُ إلى طبيعةِ ما يُتكلَّمُ فيه (الرَّذائل) وإلى القصدِ وسياقِ الكلام ، وما يقتضِي حال المَنهيّ عنه من الرَّذائل ، وحال المُتكلم في الإشفاق على من ينهاها . . . . كلّ ذلك أعلَى شأنَ الرَّغبةِ عن إيهامِ أنَّ المنْهِيَّ مَنظورٌ فِيهِ إلى توالدِ الرذائل بعضِها من بعضٍ . ذلك بعضٌ مِن نهجِه في تأويلِ الظَّواهر وعدولها عمَّا يُمكنُ أن يتوقعَ .

* * *

ومِنْ هذا هدايتنا إلى أهمية قرن النظائر لاستخراج ما لا يسْتخرجُ بغيرِ ذلك الاقتران : « تَجدُ فِي كلامِ سيّدنا المختار صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ حِين نَضَعُ بَعضَهُ بِجوارِ بَعضٍ يُعطيك عطاءً لا تَجدُه إذا درستْ بعضَ كلامِهِ بِمعزِلٍ عنْ بعضٍ »[1]

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢٢٥/١

كأنّي بالبيان في رؤية الشّيخِ يقوم بالإحسان إلى الجارِ ذي القربَى يترابحان فيتراحبان ، ويَتسعُ أفقُ الرّؤية لِما في كلٍّ مِن دقائقِ المعاني ولطِيفِها وطريقها ، ممّا يُقيمُك في جنة التلقّي والفهم ، فتدركُ ما لم تر عينُك وما لم تسمعْ أذنك ، وما لم يخطرْ على قلبك من قبل أن يتحقق هذا الإحسان بيْن الجار ذي القُربَى..

وإذا ما كان هذا في عالم البيان ، فكيفَ هُو في عالمِ مِن يصنع البيان ؟

ومن ثَمَّ تراه يُناظر الأحاديثَ المُتشابِهة والمُتقارِبة ، وكذلك يناظرُ رواياتِ الحديثِ الواحدِ ليرَى ما بيْنها من اختلافٍ واتفاقٍ واجتماعٍ وافتراقٍ ، وأيُّها أصلٌ تفرّعَ عليْهِ غيرُهُ ومقتضِياتِ ذلك كلّه ، وأثرَه في المعنَى وفِي النفسِ المستقبِلةِ ذلك البيان ومخرج هذا فيما يبدُو لي يرَى كلّ معنًى إنسانًا له بالآخرين علاقاتٌ اختلافٍ واتّفاقٍ ، وله مأمٌ أعظم يَؤمّون إليه ، فيجعل مِن وكده قراءة العلاقات بين المعاني ؛ لأنّها من باب علاقاتِ الإنسان بالإنسان . وكأنّي به يَستَحضِرُ وهو قائمٌ بشرح بيان النّبوة قولَ الله تعالى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ**﴾ (الحجرات:١٣)

من هذا ما تراهُ في صَنيعه في ثلاثة أحاديث جمعها في سياقٍ :

ما رواه مسلمٌ عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِىَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ».

وَمَا رَوَاه عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ «لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

وَمَا رَوَاه عَنْ عُقْبَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ «لاَ تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِى يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ».

يناظرُها فَيرَى أنَّ حديث «عقبة» : «لاَ تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِى . . .» يرجعُ إلى حديثِ ثَوْبَانَ : «لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى . . .» رجوعًا ظاهرًا ، وكأنَّه رواية أُخرَى مع شيْءٍ من اختلافٍ أَوْجَبَهُ اختلافُ الكلمِ لا النّظمِ ، فهما على منوالٍ .

وحديثُ ثوبان ، وحديثُ «سَمُرة» : «لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا . . .» يقُومان على بيان أمرينِ :

الأول : بقاءُ الدّين قائمًا ، والآخر أنّ ثَم طائفةً رسالتُها الدِّفاعُ عَن هذا الدّينِ الذي هوكهفها الحافظ ، وهو نورُها الهادِي .

والتَّبصُّرُ يُريك فرقًا جَوهريًّا في منهاجِ الإبانةِ والإفهامِ في كلٍّ ، ويعمَدُ الشّيخُ إلى بيانِ هذا الفرقِ ، وهو يَستهل بيانَه بتعيينِ رأسِ المعنى ومركزِه في كلٍّ ، وهذا يرسُم لنا معالمَ الطَّريقِ فِي المُناظرة بين الأشباهِ والنّظائرِ .

وهذا الباب : بابُ ما يختلفُ فيه المتناظرانِ وما يتَّفقان فيه وما بيْنهما مِن تغايرٍ وتشاكُلٍ ومقتضياتِ ذلك ، وأثره هُو جوهر صِناعةِ العقلِ البلاغيّ فِي البيانِ ، والتوفيقُ فيه مفتاحُ التوفيقِ فيما وراءه ؛ لأنّ حسن الفهمِ لذلك يترتبُ عَلَيْهِ حُسنُ الفهمِ لما بُنِيَ عَلَيْهِ .

يذهبُ الشَّيْخ إلى أنَّ رأسَ الأمرِ في حديثِ «ثوبان» هو الإنباءُ عَن الطَّائفةِ النَّاصرةِ للدّين ، ورأسُ الأمرِ في حديثِ «عُقبة» هو الإنباءُ عن أمرِ هذا الدّينِ المَنصُورِ .

الشيّخُ هنا يلفتنا إلى مخرجِ المعنى في كلّ حديثٍ ، وإلى الجهةِ التي هِي أصحّ لتأديتِه ، علَى نحو ما أبان به عبدُ القاهر عَن الطّريقِ إلى تحقيق حسن دلالةِ الكلامِ على معانها وتمام هذه الدّلالةِ وإحكامها[1].

---

(١) دلائل الإعجاز : ص ٤٣ فقرة : ٣٥ .

وكأنّي بالأوّل اقتضاه افتقارِ الأمّة إلى بيانِ مسؤوليتها إزاءَ هذا الدّين الحقّ المُطلق الّذي هو لها النورُ والكهفُ وجاء حديثُ «ثوبان» مطابقًا لمقتضى حال هذه الأمَّةِ ورسَالتها ، فجعل الحديثَ عنها هو رأسُ الأمرِ فيه . وكَأنّي بالآخر : حديثِ «عقبة» اقتضاه افتقارِ هذه الأمةِ من بعدِ بيانِ مسؤوليتها إزاءَ هذا الدّين الحقّ إلى ما يقُيمُ في قلبها أنّ هذا الدينَ الخاتم كتِبَ له الخلودُ والانتصارُ ، وأنَّه إن مُني حماته يومًا بالانكسارِ في حلقة من حلقاتِ المجاهدة ، فإنَّ هذا الدّين الحقّ باقٍ منصُورًا يُقيّضُ الله جَلَّ جَلالُهُ له من يقوم لنصرته ، ويقُوم بمنعتِه . وهذا يجعلُ الطائفة النّاصرة للدّين على يقين من الانتصار إن قامت بما هو عليها .

وهذا فيه أيضًا بيانُ الجِهة الّتي أُتِي إلى المعنَى مِنها ، فكان الدخول إليه مدخلا كريمًا .

وكأنّي بحديثِ : عقبة «تالٍ لحديثِ» ثوبانَ في الإيرادِ والإنباءِ النَّبويّ . وهذا يُمكن أن يفتح لنا بابَ ترتيبِ إيرادِ الأحاديثِ في البابِ الواحد من المعانِي من جهةِ ما سِيقت له ، وعلاقة بعضِها ببعضٍ ، وهو بابٌ بِكرٌ جَموعٌ للطائف والطرائفِ لم يُستزرَع على النَّحوِ الَّذي هُوأليقُ بِهِ مِن جِهةٍ ، وأليقُ بالعقلِ البلاغيّ العربيّ أن يشتغلَ به بَدَلا من الاشتغالِ بما يقيئه العقلُ الأعجمي ، من مذاهب لغوية وأدبية ونقدية وفلسفيّةٍ فتسارع ثلة المستغربين إليه غَرثَى . المهمّ أنّ الشّيخَ يستخلصُ من هذا تعادلا لمنزلة كلّ من الطائفةِ النّاصرةِ والدّين المنصُور ، وأنَّ هنالك تلازمًا بيْنهما وجودًا وبقاءً[1]

وهذا يُفهِمُ أنَّه إذا ما كان بقاءُ هذا الدِّينُ حَقيقةً قارّةً لا يتوقفُ فيها مُتوقفٌ ، فإنّ وجودَ هذه الطائفة النَّاصِرة كذلك ، فحفظُ هذه الأمَّة مِن حِفظِ هذا الدّينِ الّذي تكفَّل اللهُ تعالَى بِه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩)

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ٣٨٦/١، ٣٨٧ .

فهي أُمَّةٌ محفوظةٌ من الله تعالى بحفظِ القرآن وهذا يقيمُ في قلبِ هذه الأمّة أنّه لَن تكونَ جائحةٌ تجتاحُها مِن قوّة البَغي مَهْما بلغَتْ الأمـةُ المسلمةُ فـي الضَّعفِ ، ومهما بَلَغت قُوَى الشّرّ فِي الاستفحالِ وتكاثر العَـدَد والعُـدَدِ وتنوعها .

وليس ثَم أُمّةٌ كان دينُها دينًا خالداً غيرَ هذِه الأمّة .

وليس ثَم أَمَّةٌ اقترن بقاؤها ببقاءِ دينِها غيرَ هذِه الأمّةِ .

وليس ثَم أمةً اقترن بقاءُ لسانها فصيحًا محفوظًا معلومًا دقيقُه ولطيفه لفظًا ومعنًى ، وكلمًا وتراكيب ومنهاج إفهامٍ وفهمٍ ببقاء دينها غير هذه الأمة . .

وهذا يقيم في قلوب أبناءِ هذه الأمّة ثقلُ المسؤولية المُلقاة على عاتقِهم ، إذْ جعلَهم الله سُبحانَه وتعالى سببًا من أسباب حفظِ هذا الدِّين مَنصوراً .

وهذا مِن تكريمِ هذِه الأمَّةِ وتشريفِها ، فاستحالَ تكليفُها تَشريفًا ، ومآلُ كل تكليفٍ في هذا الدين إلى تشريفٍ لمن قام له ، وقامَ بِـه ، ولـو أنّـا نظرنـا إلى هذه الحقيقة لهشَّت نفوسُنا لكل تكليف ، واستبشرت بكلّ أمرٍ أو نَهي ، ورأت في ذلك مطية تقربها إلى ربها جلّ جَلالُه .

وإذا ما كانت الأممُ السَّابقة تجتهدُ في تخليدِ ذكرِها عبْرَ وسائلَ تَصطَنِعُها هِيَ بِنفسِها لِنفسِها على نَحو ما فَعلتِ «الفَراعِنة» إذْ خلَّدت ذكرها بصناعتها في الآثارِ الحجريّة ، وعلى نحْو ما صَنعتْ «يونانُ» إذْ خلَّدت ذكرَها في الفلسفةِ والمنطقِ ، وعلى نحْو ما فعلتِ «العربُ» قبلَ الإسلام إذْ خلَّدت ذكرها فِي الشّعْرِ ، فإن هذه الأمّة المُسلمة لم تصطنع لنفسِها وسيلةَ تخليدها ، بَلْ صَنعَها لها خَالِقها : جَعلَ خُلودَها وخُلودَ ذكرِها بيْن الأُمَم بِخلُودِ هذا الدِّينِ ونُصرتِهِ . وهذا ما لم يكن لأمّة غيرِها .

وإني لمؤكد ذلك تأكيدًا مقرونًا بقوله الله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ** ﴾ (الحج:٣٨)

في هذِه الآيةِ وعدٌ إلهِيٌّ صَادِقٌ مُتضَمِّنٌ شرْطَ تحقُّقه : تحقّقَ الإيمانِ ممَّن وعدُوا بالدّفاع عنهُمْ : «الذين آمنوا» وكأنَّ في هذا تقريراً لما يفهم بـ «مفهوم المخالفة» أنَّه لا يدافع عن غيرِهم ، بل يدع ذلك لأنفسِهم ، وليس أنكى من أن يدَع الله جَلَّ جَلالُهُ أحداً إلى نفسِه ، فيكونُ فِي هذا دمارُه لمَحالة .

وهذا ما يؤكده منطوق قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ .

وفي قوله ﴿ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ إعرابٌ عنْ أنّ الدّفاع عَنهم لن يكونَ فحسبٌ بما يكون من غيرِهم من الذين كفروا أو فسقوا أو مرَدُوا على مجاهرة الله تعالى بالمعاصِي من دعاة «الدّولة المدنيّة» التي لا يكون فيها الإسلام إلا حبيس المساجد والمنازل ، وغير مأذون له بأن يكون في غيرِهما بل يكون الدفاع عن الذين آمنوا من الله سُبْحانَه وَتَعالَى بذلك وبما عند ربك من جنـــده ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ (المدثر:٣١) وبمقدار تحقيقهم الإيمان في قلوبهم ومسلكهم في الحياة ، وبمقدار ما يجعلون من الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقًا نورًا وسيفًا يكون دفع الله سُبْحانَه وَتَعالَى عنهم

وإذا ما كان البيان القرآني يقول : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ بكلّ ما يتضَمَّنه من مؤكداتٍ تقرِّر مضمونَ هذا النّبإ الإلهي الحقّ ، وكان «الّذين آمنُوا» هم في أول مدرجةِ مِعراج القرب من الله سُبْحانَه وَتَعالَى ، فكيف بمَن هُم فوق هَذه الدّرجة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (النحل:١٢٨) وهي معيَّةٌ أوسعُ وأعظمُ مِن الدّفاع عنهم . فهل لنا أنْ نفهَمَ عن الله سُبْحانَه وَبِحمدِه فهمًا يُرى أثرُه في سُلوكِنا ؟

* * *

والشيخُ يغرينا ـ طلابَ العِلمِ ـ في رِفقٍ بأن نقومَ إلى باب جمع الأحاديثِ ذات المعنى ، لِنبصِرَ ما بيْنها مِن علاقاتِ اتفاقٍ وافتراقٍ ، وأنْ نعملَ على الوفاءِ بحقِّ هذا البابِ . يقُولُ : «ولَوْ أتيحَ لِي أنْ أجمعَ الأحاديثَ الّتي تناولتْ مَعنًى

واحدًا ، وأَبانتْ عَنْهُ فِي بيانينِ مختلفينِ علَى حدِّ ما بيّنتُ فِي هذينِ الحديثينِ . أقولُ لَو أتيحَ لِي ذلك لَفعلْتُهُ ؛ لأنّهُ مُهمٌّ جدًّا فِي معرفةِ أسرارِ بيانِه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وَمعرفةِ أقدارِ المعاني التي تنوعتْ طرائقُ الإبانة عنها »[1]

والشّيخُ يعزفُ على وترِ شغفِ طلابه بِصنعِ ما يُرضِيهِ وما يُحبُّ أن يفعلوا ، فهم يتنافسُون في إرضائِهِ ، وفي أن تكونَ لهم عندَه زُلفَى ، وأن يصنعُوا ما تقرُّ بِه عينُه جزاءً له على ما أسدى إلَيْهم من جليل الفضلِ ، وهو يستشعرُ ذلك من حال بعضِ طلابِ العلمِ حولَه ، فيُبرِزُ لهم أمانِيه في صِناعة العلم ، التي لم يسبق في وسع وقته وجهده ما ينجزُه ، فيتنافسُ أولئك الطّلاب في تحقيق أمانيّ شيخهم سبيلا من سُبل البرّ به ووفاءً ببعضِ حقّه عليهم . وهذا من الشَّيْخ مذهبُ تربويٌّ يَسوقُ طلابَ العلم إلى استزراع الخيرِ ، واستثمارِه ، والدّال على الخيرِ كفاعلِه

* * *

والشَّيخ حَفِيٌّ في مواضعَ عدّة بأن يبرزَ لنا خصائصَ هذا البيان النَّبويّ ، وهواحتفاءُ أفهمُ منه إغراءنا طلابَ العلم بالبحثِ عن هذه الخصائص في البيانِ النّبويّ بأنفسِهم ، وتبصر علاقتها بالبيان القرآني من جهة ، وعلاقتها بالغاية التي يكون لها هذا البيان النبوي ، فهم إن فعلوا علموا علم يقين أنَّهم ليسوا بأهلٍ لأن ينفقُوا أعمارهم وجهودهم فيما ما لا يكون من هذا البيان بسبب أو في ما لا يؤدّي إلى حسنِ تلقيه ، وفهمه « ومَنْ قَصَدَ البحرَ استقلَّ السواقيا ».

يقُول في معرض بيان سنة بيانية لرسولِ الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ تتمثل فِي تقاربِ الحذو في الأحاديث النبوية : « ... وهذا المنوالُ أو هذا

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٣٧٨/١، ٣٨٨ .

المذهبُ أو المنزعَ فِي البلاغة النبوية يُعين على حفظِ هذه الأحاديثِ الّتِي هِي من أصُولِ الدينِ ، وذلِكَ بِتَيْسيرها وتكرار مِنوالِها ، وإن اختلفتْ ألفاظها .

ثُمّ إنّها ذات قيمةٍ أخرَى ؛ لأنَّ هـذَا الأسـلوب العـالِي ، والسّـهل ، والعـذبَ يُساعدُ قارئَ السّنةِ علَى صَقلِ ملَكتِهِ اللسانيةِ ، وإلَى زيادةِ قُدرتِه البيانيّةِ .

وحَقِيقةُ العِنايةِ بالبيان فِي هذِه الأمّةِ ليْسَتْ التّفاصُحَ ، والتّعالمَ ، وإنّمـا هِـي منْ أصُولِ الدينِ؛لأنّـه لاَ يُقرّبكَ مِنْ كلامِ اللهِ سُبْحانَه وَتَعالَى،وكلامِ رسُولِه ﷺ شَـيْءٌ كَمَـا يُقرّبـك الإحسَـاسُ البيـانيّ الَّـذِي يُعينـك علَـى اسْتكشَـافِ خَفَايَـا البيان»[1]

قول الشيخ : «وهذا المنوالُ أو هذا المذهبُ أو المنـزعَ فِـي البلاغـة النَّبويـة يُعين على حفظِ هذه الأحاديثِ الّتِي هِي من أصُـولِ الـدينِ ، وذلِـكَ بِتَيْسـيرها وتكرارمِنوالِها ، وإن اختلفتْ ألفاظها». أيكون ذكره «المنـوال» و«المَـذهب» و«المنزع» من قبيل التكاثر أمْ هو يلفتني إلى مناطات النظر في البيان : أيكونُ «المنوال» منظورًا فيه إلى أثر أدوات الفعل في تحقيق الانسـجام ، فهـو يتخـذ أداة ينسج عليْها كلامه . فيكون متقاربًا غيرَمتفاوتٍ في نسجه ومنسوجِه .

والعربُ تقول : وإذا استوتْ أَخلاقُ الْقَوْمِ قِيلَ : هُمْ عَلَى مِنْوَالٍ وَاحِدٍ ، وَكَذَلِكَ رَمَوْا عَلَى مِنْوَالٍ وَاحِدٍ أَي عَلَى رِشْقٍ وَاحِدٍ ، وَكَذَلِكَ إِذَا اسْتَووا فِي النِّضال .

أَوَ يكونُ «المذهب» منظورًا فيه إلى مسلك الفعل ، ومساره ومدرجِه الـذي يجري عليْه ، ومستوى الحركةِ ، لأنّ الذهاب فيـه إشـارة إلى مسـتوى الحركـةِ ونوعها . ومتجهها .

وفي كلمة «المذهب» إشعاربالسيرورة والديمومة والاطراد وسمـي كـذلك لأنَّـه يذهب فيه بالبيانِ إلى القلوب على نهجٍ سواء .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ٥٨٧/٢

أَوَ يكون «المنزع» منظوراً فيه إلى مخرج الفعل ومصدره فلكلّ فعلٍ باعثُ عليْه ومنزع ينـزع منـه ، وكلمـة «منـزع» تشيرُ إلى مـا ينتـزع منـه الفعـل ، ومستخرجه ، والعرب تقول : انتزعت هذا من قولك ، ونزعته أي استخرجته ، فالكلامُ منازع المعاني ، وهم يقولون : إن الكلام من الكـلام . فـالكلام الفاعـل في القلوب لا يخلقُ من عدم ، وإنما ينتزع من أصولٍ عريقة في صَنعةِ البيان

فتكون الكلمات الثلاث هاديةً إلى تحقق الاستواءِ في البيان لأنّه خـرج مـن مخرج واحد ، وكان بمنوال واحد وجرى على مذهبٍ واحد ، فأنّى يختلف؟!!!

واستواءُ البيان آية على استواءِ النَّفسِ التي خرج منها ، فـإذا مـا رأيـت بيـانَ الرَّجـل ذا رقـاعٍ متنوعة فـي صِيَاغة المعـنـى في البابِ الواحد ، فهذا آية علـى ما يعتلج في نفسِه من اضطراب وتفاوتٍ .

أيكون لي أنْ أذهب إلى أنَّ الشيخ يرمِي من الجمع بيْن هذا الكلمات الثلاث إلى شيءٍ ؟ لعلي حُمتُ حول حماه . وإلاَّ . . .[1]

---

(١) رغبتُ من هذا أن أحمل النَّاشئة في طلبِ العلم أن تكونَ لهم عنايةٌ بطريقة الإفهام لدَى أهلِ العلم الأعيان ، فلا يكتفِي طالبِ العلم بأن يفهم عن شيخِه مقصده ، بل حبذا الوقـوف عنـد طريقتِه فـي الإبـانـة والإفهـام . فالظنُّ بأهـل العلم الأعـيان أنّـهم لا يعمدَون إلى الترادفِ الأجرد ، ولا إلى التّكاثر ، فقولُ الله سُبْحانَه وَبِحمدِه ﴿ **أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ** ﴾ قائم في صدورهم ، وهم يستحضرون أيضًا في صدورهم تنفيرَ سيّدنا رسول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ من «التفيهق»

ومن كمالِ العلم أن تَتعلّمَ كيف تُفهِم الآخرين بعد أن تتعلَّم كيف تَفهَمُ عن الآخرين. وهذا لا يتأتّى إلا بالعناية بفقه طرائق الإفهام عند الأعيان ومنهاجهم في الإبانةِ واختيار الكلم والكلام والصّنعة في ذلك ، وفي منهجهم إلَى استدراك مرادتهم ومقاصدهم .

وظنّي أن النّاشئة في طلب العلم لو جعلوا من عمرهم وجهدهم نصيبًا للنّظر في منهاج كلّ من الأستاذ مصطفى صادق الرّافعي ، والدكتور محمد عبد الله دراز ، والأستاذ الأكبر محمود شاكر ، وشيخنا ، وتفرغوا لأن يتعلموا منهم منهاج الإبانة ،==

وقوله : « يُعين على حفظِ هذه الأحاديثِ الّتِي هِي من أصُولِ الدينِ ، وذلِكَ بِتَيْسيرها وتكرار مِنوالِها ، وإن اختلفتْ ألفاظها . « فيه لفتٌ إلى المثنَي ، وإلى المغزَى من وراء هذه الطريقة في الإبانةِ النبوية ، فاستقرارِ هذه الأحاديث الـذي هو ضرورة من أنها أحاديث في أصول الدين يجعلها فاعلة في القلبِ الذي إذا استقام استقامت الحياة . وهذا مطمح نبيلٌ بل جليل رئيس ، لا يُغفل عن الوفاءِ بحقّه البتة .

ويلفت الشيخ إلى أن هذا النَّهج في الإبانة النبوية له أثر في السامع والقارئ من حيث امتلاكه مهارة الإفهامِ ، فهي مهارة مكملة مهارة « الفهم » والله سُبْحانَه وَبِحمدِه في قوله : ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ (الرحمن:٤) كان البيان المعلّم للإنسان بشطريه : بيان الفهمِ وبيان الإفهام . ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة:٣١-٣٣)

فمن امتلك مهارة الفهم عن الآخرين ، ولم يكن ممتلكًا مهارة الإفهام ، فهـو ناقصٌ في آدميَّته من هذه الجهة ، والرَّغبة عن ذلك رغبة عَنْ الانتفـاع بنعمـة الرّحمن ، وفي هذا مِن سوءِ الأدب مع الله تعالى ، وكفى بالعبد إثما أن يسيئ الأدب مع ربّه سُبْحانَه وَبِحمدِه . فلو لَم يكن من تعلم مهارة « الإفهام » إلا أنـّه يحقق محبوب الله تعالى : أن يرى أثر نعمتِه على عبدِه لكافاه .

== وحملوا من معجمهم ، كلما وتراكيب وجعلوا من ذلك زادهم لكانت لكلٍّ طريقة منسولة من أولئك الأعيان ، فكان لبيانهم ولتفهيمهم الآخرين خصُوصية ، وطابعٌ . « إن الكلام من الكلامِ » ومثلما تَسْمعون تُسمِعون .

وبلفتنا الشيخ إلى أمر جليلٍ في توظيف نعمةِ «الفهم ، والإفهام» في أصول التربية الإسلامية ، أن التميز في هذه المهارة ليس تحقيقًا للتّفاصُحَ ، والتّعالمَ ، وإنّما هِي منْ أصُولِ الدينِ ؛ لأنّه لا يُقرّبكَ مِنْ كلامِ الله سُبْحانَه وَتَعالَى ، وكلامِ رسُولِه ﷺ شَيْءٌ كَمَا يُقرّبك الإحسَاسُ البيانيّ الذِي يُعينك علَى اسْتكشَافِ خَفَايَا البيان ، وقد أثر أنَّ «مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الْكَلاَمِ لِيَسْبِىَ بِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ أَوِ النَّاسِ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلاَ عَدْلاً» [1].

معنى «لِيَسْبِىَ بِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ أَوِ النَّاسِ» أي ليكون له سلطان عليها يصرفها إلى مراداته ومطامعه ، وليس إلى مرادِ الله تعالى ومرضاتِه . فمن تعلَّم صرفَ الكلام ليسوقَ قلوبَ الرّجال إلى ما يُرضي الله سُبْحانَه وَبِحمدِه فهُو مّمن يقبل الله تعالى فعله ، ويقبلُ عليْه ، كما تقضِي سبيلُ «دليل الخطاب» (مفهوم المخالفة) في الأفهام

* * *

---

(١) ضعَّف الألباني رفعه إلى رسول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ ، ولذا لم أشأ أن أسنده ، وهو في معناه سديد ، يتلاقَى معناه مع أحاديث أخر صَحيحة ، فالضعف من قبلِ السند ، لا من قبل المعنى .

ينظر في هذا «صحيح وضعيف سنن أبي داود» للألباني (رقم : ٥٠٠٦) وضعيف الجامع الصغير للألباني (رقم : ٥٥٢٩) وضعيف الترغيب والترهيب للألباني (رقم : ٨٧)

ومعالم السنن : شرح سنن أبي داود . تأليف : أبي سليمان حمد بن محمد ابن إبراهيم الخطابي (ت : ٣٨٨هـ) نشر : المطبعة العلمية . حلب . ط(١) عام : ١٣٥١هـ . ١٣٦/٤ ، والكاشف عن حقائق السنن : شرح مشكاة المصابيح تأليف : شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت : ٧٤٣هـ) تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، نشر : مكتبة نزار مصطفى الباز . مكة المكرمة ط(١) عام : ١٤١٧ هـ .

٣١٠٧/١٠ رقم (٤٨٠٢) ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، تأليف : الملا علي القاري : علي بن سلطان محمد ، الهروي (ت : ١٠١٤هـ) نشر : دار الفكر ، بيروت ط(١) عام١٤٢٢هـ . ٣٠٢١/٧ رقم (٤٨٠٢)